الاضطرابات الدينية بين الأقباط والمسلمين فى عهد السلطان الناصر
(أحداث سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢١م)

د. فاطمة الزهراء عبدالعزيز فرج أبوالعينين

الأقباط هم أكبر تجمع مسيحي على الرغم من أنهم قلة مقارنة بالمسلمين. فقبل الفتح الإسلامي لمصر عرف العرب أهل مصر باسم (القبط)، كما سموا مصر دار القبط. ولما كان المصريون إذ ذاك مسيحيين فقد استعمل العرب كلمتي (قبطي – نصراني) على التبادل عند الإشارة إلى سكان البلاد الأصليين، ثم أصبحت كلمة قبط تطلق بشكل خاص على المسيحيين من أهل البلاد الذين ظلوا على ديانتهم بعد أن تحول أكثرهم إلى الإسلام(١).

وتعددت الآراء حول أصل كلمة قبط، والراجح أنها مشتقة من كلمة إيجيبت التي هي مركبة من كلمتين يونانيتي الأصل إحداهما (أي) بمعنى أرض أو بلاد، والثانية (جيت) بمعنى القبط، فيكون مجموع معنى الكلمتين أرض القبط أو بلاد الأقباط. وعلى هذا فالأقباط هم سلالة المصريين القدماء. ويسمون أقباطاً نسبة إلى قفط وهي اسم لبلدة في الصعيد، وهي أول مدينة تأسست في وادي النيل، وأول بلدة وطأتها أقدام الأقباط(٢).

ويُسمى القبط أيضاً بالنصارى، وهم أتباع سيدنا عيسى نبي الله (عليه السلام) ابن مريم وسموا بذلك لأن سيدنا عيسى لما ولدته أمه مريم ببيت لحم ثم صارت به إلى مصر وسكنتها ثم عادت به إلى أرض بني إسرائيل قومها، نزلت به قرية الناصرة، فنشأ سيدنا عيسى بها وقيل له (يسوع الناصري) والتنصر هو الدخول في دين النصرانية أي دين سيدنا عيسى (عليه السلام) (٣). والنصارى فرق

(١) هموم الأقليات في الوطن العربي. إصدارات ابن خلدون.التقرير السنوي الأول لعام ١٩٩٣. مركز ابن خلدون. القاهرة، ١٩٩٣م.ص٢٥ص٢٦.

(٢) توفيق عزوز : الهدية التوفيقية في تاريخ الأمة القبطية . القاهرة ١٩٨٣، ج١، ص ٨،ص٩.

(٣) المقريزي. تقي الدين أحمد بن على:المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. تحقيق : أيمن فؤاد سيد. لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م مج ٤ ص٩٦٨، ص ٩٦٩.

كثيرة أشهرها الملكانية واليعقوبية . والملكانية تنسب إلى ملك الروم[١]، وهم يقولون أن الله اسم لثلاثة معان، فهو واحد ثلاثة وثلاثة واحد. أما اليعقوبية فتقول أنه واحد قديم وأنه كان الجسم ولا إنسان ثم تجسم وتأنس[٢]. واليعاقبة هم أتباع مذهب الطبيعة الواحدة[٣]، ويمثل أتباع هذه الطائفة غالبية أقباط مصر.وكلمة بطريرك هو لقب رئيس النصارى اليعقوبية بمصر ويقيم بالإسكندرية[٤].

والملكانية واليعقوبية متفقان على أن معبودهم ثلاثة أقانيم[٥]، هذه الثلاثة شيء واحد ومعناه أب وابن وروح القدس وهم إله واحد، وأن الابن نزل من السماء فتدرع جسداً من مريم وظهر للناس يُحيي ويُبرئ ويُنبئ، ثم قُتل وصُلب وخرج من القبر، فظهر لقوم من أصحابه فعرفوه، ثم صعد إلى السماء فجلس عن يمين أبيه، هذا الذي يجمعهم اعتقاده[٦]. وأثر عن ملوك الملكية واليعاقبة أنهما تهاديان صاحب مصر وتراسلهما لاحتياجهما لتمكن المترددين على مصر من زيارة الكنائس والمزارات . واليعاقبة أكثر حاجاتهم إليه لمقام بطريركهم عنده فإنهم ليس لهم بابا، بخلاف الملكيين فإن لهم بابا يقيم برومية[٧].

---

(١) الشهرستاني. محمد بن سعيد عبد الكريم :الملل والنحل. تحقيق:محمد بن فتح الله بدران، القاهرة، ط١ ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م. قسم ١، ص ٥٢٩.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار مج٤، ص ٩٨٩.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل . قسم ١، ص ٥٤٢.

(٤) العمري.ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن)، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨٥م، ج١، حاشية ص ٧٥.

(٥) الشهرستاني: الممل والنحل . قسم ١، ص ٥٤١.

(٦) المقريزي: المواعظ والاعتبار، مج ٤ ،ص ١٠٢١.

(٧) العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص ٧٦.

أما عن وضع هؤلاء القبط أو النصاري من الدين الإسلامي والذي أطلق عليهم (أهل الذمة) فلا أحد ينكر أن الدين الإسلامي باعتباره الدين الخاتم لم ينف وجود المخالف له في العقيدة، بل قبل وجوده، وجعله مشروعاً ونظمه، فربانية الدين الإسلامي هي إحدى الضمانات التي حفظت لهم وجودهم في المجتمع المسلم(١). وقد أقرت شريعة الإسلام حرية العبادة، وكفلتها لاتباع كل دين يحيا في ظل الإسلام ومنع الإكراه على اعتناقه(٢)، قال تعالى " لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ "(٣)، وهذا هو محتوى وضع أهل الذمة، فالذمة هي العهد الذي يُعطى للقوم الذين لا يدخلون في الإسلام عند فتح المسلمين لبلادهم، لا يسترقون ويؤمنون على حياتهم وحرياتهم. وتندرج في الذمة حقوق دنيوية على المسلمين قبل الذميين، والتزامات يؤديها الذميون للمسلمين(٤).

وفي مقابل الحصول على هذا التأمين على الحياة والحرية، فينبغي على أهل الذمة دفع الجزية وهذا هو خيار الإسلام لهم. فالإسلام لا يقر القتال لغير الثائرين على عقيدته، بل يقنع بالجزية ممن كانت ثورتهم غير جامحة، وظهر حرصه على كفالة حرية العقيدة لأتباعه وغير أتباعه على السواء، بحيث يتساوى عندها المسلم والنصراني واليهودي جميعاً(٥)، وحتى في أمر فرض الجزية عليهم

(١) كمال السعيد حبيب: الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية، من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانية (١- ١٣٢٥هـ/ ٦٢٢- ١٩٠٨م) القاهرة، ٢٠٠٢م.ص٦٧

(٢) توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، القاهرة- دار الفكر العربي، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، ص ١٦٥.

(٣) سورة البقرة. أية (٢٥٦).

(٤) دائرة المعارف الإسلامية. إعداد :أحمد الشنتاوي وآخرون د. ت. مج٩، ص ٣٩٠.

(٥) توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني.ص١٦٦

مراعاة لمقتضى الحال، بحيث فرضت عليهم على قدر طبقاتهم[١]. أما من يسلم منهم فتسقط عنه الجزية على الفور[٢]. وفرض الجزية عليهم إنما هو امتثالاً لقول الله تعالى "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عند يد وهم صاغرون[٣]، ويقول ابن القيم في معنى الصغار أنه ليس الذل والهوان، وإنما هو التزامهم لجريان أحكام الملة عليهم وإعطاء الجزية، فإن التزام ذلك هو الصغار[٤]، وليس كما يُفسر البعض كلمة (الصغار) بأنها الذل والدونية.

وقد أدى الفهم الخاطئ لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من جانب البعض إلى اعتقادهم بأن أهل الذمة هم أعداء للمسلمين ولا يجب استخدامهم أو التعامل معهم، وأن هذه الآيات وتلك الأحاديث تشير إلى أن أهل الذمة محتقرون. ومن ذلك قول الله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ)[٥]. فهناك من ذكر أنه ينبغي بمقتضى هذه الآية أن نعتبر بالقرآن كلام الله[٦]، ولكن في الحقيقة هذه الآية تنهي المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى لا باعتبارهم أهل ذمة للمسلمين، وإنما باعتبارهم ناقضين لعهد الذمة خائنين له[٧]. وكذلك قيل أن النبي

(١) الشيرازي. عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله: نهاية الرتبة في طلب الحسبه، تحقيق: السيد الباز العريني، بيروت– دار الثقافة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ١٠٧.

(٢) ابن قيم الجوزيه: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: أحكام أهل الذمة، تحقيق : صبحي الصالح، بيروت، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٣م، ج١، ص ٥٧.

(٣) سورة التوبة: أية (٢٩).

(٤) أحكام أهل الذمة، ج١، ص ٢٤، مقدمة المؤلف.

(٥) سورة المائدة. أية (٥١).

(٦) اليوسفي. موسى بن محمد بن يحيى: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر. تحقيق: أحمد حطيط. بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٧) كمال حبيب: الأقليات والسياسة، ص ٧١.

(صلى الله عليه وسلم) ذكر أنه لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف[١]، وظن الناس أن ذلك شامل لجميع العرب، وإنما ذلك فيمن كان منهم يعبد الأوثان خاصة[٢]، وأيضاً نتيجة لهذا الفهم الخاطئ وجدنا السيوطي يُورد في كتابه أن هناك من قال : "أن الله جعل البركة عشرة أجزاء، تسعة منها في قريش وواحد في سائر الناس... وجعل المكر عشرة أجزاء فتسعة منها في القبط وواحد في سائر الناس"[٣].

فهؤلاء يتمسكون بظاهر الآيات أو الأحاديث، وتناسوا الفهم الصحيح لها وتناسوا أن يأخذوا في اعتبارهم أسباب نزولها. ومع هذا فكتاب الله ودستوره يرد عليهم في أكثر من موضع منها قوله تعالى : (لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوَهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [٤]. قال تعالى: (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ) [٥] . والأحاديث أيضاً كثيرة منها قوله (ﷺ) " من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة"[٦]. وإنهاءً لهذه المسألة

(١) ابن الأخوه. محمدبن محمدبن أحمدالقرشي: معالم القربة في أحكام الحسبة، كيمبرج. دار الفنون،١٩٣٧م،ص ٣٨.

(٢) قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق: محمد حسين الزبيدي، العراق – وزارة الثقافة، سلسلة كتب التراث، دار الرشيد، ١٩٨١م.ص٢٢٤

(٣) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم – المكتبة العصرية– بيروت، ط١، ١٤٢٥ه/٢٠٠٤م.ج٢،ص٣٧

(٤) سورة الممتحنة، أية (٨).

(٥) سورة المائدة: آية (٥).

(٦) أبو داود: سنن أبو داود. تعليق: محمد محي الدين عبدالحميد، القاهرة، د. ت، ج٣، ص ١٧١.

الخلافية يجب على الجميع أن يعتبروا ويتفكروا في قول الله تعالى: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا" (١).

أما عن قبط مصر بوجه خاص فهم من أوصى به النبي (ﷺ)، وعلى هذا وحينما أتيحت الفرصة اتجهت أنظار خلفاء رسول الله (ﷺ) إلى فتح مصر وكان هذا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣-٢٣هـ/ ٦٣٤- ٦٤٤م) حينما أقنعه الصحابي عمرو بن العاص بضرورة فتحها، ووافق الخليفة على ذلك وتم الفتح في ٢٠هـ/ ٦٣٠م(٢) بناء على طلب عمرو بن العاص والذي كان قد دخلها من قبل وعرف طرق تجارتها(٣).

على أنه هناك من الأقباط من يرى فتح المسلمين لمصر أمر ليس مستحسناً لأنه – من وجهة نظره – موجه ضد القبط ،على الرغم من أنه يذكر أن قبط مصر عاونوا الفاتحين بسبب الانشقاقات والانقسامات الداخلية فيقول: "خلا عمرو بن العاص بالخليفة عمر بن الخطاب وطفق يحضه ويحرضه ويحسن له الاستيلاء على بلاد القبط، فصرح له الخليفة"(٤)، فيظهر في ثنايا كلامه حنقه وغيظه من عمرو بن العاص منفذ فكرة الفتح.

ويهمنا في فتح المسلمين لمصر وضع الأقباط بعد الفتح، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بما يجب أن يكون عليه وضع أهل الذمة في مصر، وكان مما كتبه "أن يختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص، ويظهروا مناطقهم،

(١) سورة آل عمران آية (١٠٣).

(٢) الطبري. محمد بن جرير: تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك. تحقيق: على مهنا، بيروت- لبنان، مؤسسة الأعلمي، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.ج٣،ص٤٩٨ص٤٩٩

(٣) أبوصالح الأرمني: تاريخ الشيخ أبوصالح الأرمني (في أديرة مصر وكنائسها)، تحقيق: ب. ت. أ. إيفتس. ألمانيا معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢.ص٢٩

(٤) توفيق عزيز: الهدية التوفيقية، ص ١١.

ويجزوا نواصيهم، ويركبوا على الأكف عرضاً، ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي، ولا يضربوها على النساء ولا على الولدان، ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم"(١). وقيل أن إلزامهم بالغيار(٢) بناء على حادثة حدثت وهي أن امرأة جاءت إلى أمير الكوفة تشتكي إليه زوجها، حيث أنها كانت نصرانية وأسلمت، فأخذ زوجها يضربها لترجع إلى النصرانية وأقامت على ذلك بينه، فضربه أمير الكوفة، فشكاه النصراني إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقال عمر :"الحكم ما حكم به أمير الكوفه" وكتب إلى الأمصار أن لا يلبسوا لباس المسلمين حتى يُعرفوا من بينهم(٣).

ونستدعي في هذا المقام ما كان من فتح بلاد الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب فبعد فتحها أراد الأقباط الحصول على الأمان من المسلمين بعد الفتح، فشرطوا على أنفسهم عدة شروط أفضوا بها إلى عامل الخليفة عمر بن الخطاب على دمشق مقابل أمانهم، وكان مما شرطوه "ألا نحدث في مدينتا كنيسه... ولا

(١) ابن عبد الحكم. أبوالقاسم عبد الرحمن بن عبد الله : فتوح مصر وأخبارها.تحقيق: محمد الحجيري. لبنان، دار الفكر ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.ص٢٦٦ص٢٦٧/السيوطي:حسن المحاضرة.ج١،ص١١١

(٢) الغيار: نوع من الملابس تميز أهل الذمة عن المسلمين."ابن حبيب. الحسن بن عمر: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه.تحقيق : محمد محمد أمين .القاهرة.الهيئة المصرية العانة للكتاب،١٩٨٢م،ج١،حاشية ص٢٣٣"وهو يختلف عن الزنار الذي هو عبارة عن خيط غليظ يشبه الحبل اشترط أن يكون من الكتان فوق الثياب."قاسم عبده قاسم:عصر سلاطين المماليك، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي. القاهرة- دار المعارف، ١٩٧٩م، ص ٢٧٦.

(٣) ابن قيم الجوزيه: أحكام أهل الذمة ج١، ص ٢٣٦. ومما يذكر في هذا الصدد أنه هناك اختلاف بين المؤرخين حيال هذه الشروط، فمنهم من ذكر أنها صدرت من عمر بن الخطاب. ومنهم من نسبها إلى خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز. على أن مثل هذه الشروط يشك في كونها صدرت كلها من الخليفة عمر بن الخطاب إذ أن بها إجحاف بيّن وللمزيد عن هذا الخلاف الرجوع إلى الكتب التي تتحدث عن فتح مصر وأحكام أهل الذمة.

نجدد ما خرب منها ... وألا نخرج صليباً ولا كتاباً في سوق المسلمين، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا...وألا نمنع أحداً من أقربائنا أرادوا الدخول في الإسلام، وأن نلزم زبنا حينما كنا، وألا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ... وأن نجز مقادم رؤوسنا ولا نفرق نواصينا، ونشد الزنانير على أوساطنا... ولا نركب السروج، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا تحمله... وأن نوقر المسلمين في مجالسهم... ونقوم لهم من المجالس إن أرادوا الجلوس، ولا نطلع عليهم في منازلهم، وأن نضيّف كل مسلم عابر سبيل ثلاثة أيام... وإن نحن غيرنا أو خالفنا عما شرطنا على أنفسنا وقبلنا الأمان عليه، فلا ذمة لنا[١]" فكتب عامل الشام إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك، فكتب إليه عمر "أن أمضى لهم ما سألوا، وألحق فيهم ألا يشتروا من سبايانا، ومن ضرب مسلماً فقد خلع عهده"[٢].

وتعليقاً على هذه الشروط يقول توفيق الطويل "إنه من طريف المفارقات أن يُتهم الفاروق باضطهاد الذميين من مسيحيين ويهود، وقيل أنه أول من وضعهم في مرتبة أدنى من مرتبة المسلم وغالى في هذا الصدد حتى أذل أعناقهم"[٣]. وفي كتاب تاريخ الكنيسة المصرية يذكرا مؤلفاه :" يرى البعض أن الشروط والإلتزامات التي فرضتها الدولة الإسلامية على الأقباط في عهد الذمة قد ساعدت على تحول الأقباط إلى الإسلام حتى يتخلصوا من المكانة المتدنية في المجتمع والتي تفرضها عليهم شروط عهد الذمه، فيرى الأقباط أنهم في إطار عهد الذمة يعتبرون مواطنون من الدرجة الثانية في موطنهم مصر"[٤].

(١) ابن الأخوه: معالم القربة، ص ٤٠ ص ٤٤/ الشيرازي: نهاية الرتبة، ص١٠٦، ص ١٠٧.
(٢) ابن قيم الجوزيه: أحكام أهل الذمة قسم ٢، ص ٦٦١.
(٣) قصة الاضطهاد الديني، ص ١٥٧،ص ١٥٨.
(٤) رفيق حبيب/ محمد عفيفي: تاريخ الكنيسة المصرية – مصر – الدار العربية للكتاب، ١٩٩٢م، ص ٤٦.

ويُرد على هذا بأقوال مأخوذة عن الأقباط أنفسهم والتي تعد كما يقال (وشهد شاهد من أهلها) حيث ذكر بتلر :" أنه ليس في كل هذه الشروط ما لا يقبله العقل... كما أن عمراً كان في حكمه يسير على نهج الاعتدال والتسامح"، ويستشهد بأن أسقفاً ملكانياً بقى على مذهبه حتى مات ولم يمسه أحد بأذى(١)، كما أن عهد الذمة يمثل عقداً اجتماعياً ينظم العلاقة بين الدولة والأقباط،(٢)، وأصبح القبط في مأمن من الخوف الذي كان يلجئهم إلى إنكار عقيدة أو إخفائها تقية ومداراه، فعادت الحياة إلى مذهب القبط في هذا الجو الجديد، جو الحرية الدينية(٣). ولازلنا مع أقوال أهل الذمة التي تشهد على أن القبط وتعاونهم مع الفاتحين كان عاملاً في نجاح الفتح بسبب معاناة القبط من المقوقس حاكم مصر(٤) والذين تعرضوا في عهده للعنف والاضطهاد، فانفتحت حقبة من الحرية والازدهار أمام الكنيسة القبطية، فالجيش العربي قليل العدد، لا يسعه الإمساك بزمام البلد وإدارته دون مساندة الأهل، وعلى من يتكل إن لم يكن على القيادات القبطية(٥). ولذلك فهم رحبوا بفتح مصر على يد عمرو بن العاص ليخلصهم من الاضطهادات التي حلت بهم(٦).

(١) فتح العرب لمصر. ترجمة: محمد فريد أبوحديد، القاهرة،١٤١٠هـ/١٩٩٠م.ص٤٦٢ ص٤٦٤

(٢) رفيق حبيب/ محمد عفيفي: تارخ الكنيسة المصرية، ص ٤٣.

(٣) كمال حبيب: الأقليات والسياسة، ص ١٨٣.

(٤) المقوقس: واسمه جريج بن مينا أرسل إليه رسول الله (ﷺ) حاطب بن أبي بلتعه، فقارب الإسلام، وأهدى إلى رسول الله(ﷺ) بغلة تسمى دلدل وحماراً يسمى يعفور ومارية القبطية أم ولده إبراهيم. وهو صاحب القبط بمصر والإسكندرية" ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد الحضرمي: العبر وديوان المبتدأ والخبر،في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٩٨٤م،ج٢، ص ٨٧".

(٥) مارتان موريس اليسوعي: الكنيسة القبطية، ترجمة : جورج عازار بيروت. دار المشرق، ١٩٩٢، ص ١٤.

(٦) علي إبراهيم حسن: تارخ المماليك البحريه وفي عصر الناصر بوجه الخصوص، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٤م.ص١٢٣

أما عن زيهم وملابسهم ففي ذلك يقول ابن القيم: "لباس أهل الذمة نوعان: نوع منعوا منه لشرفه، ونوع منعوا منه ليتميزوا عن المسلمين .. وكل من الأصليين متمم للآخر ... وليس في إحداهما ما يوجب شعور الذمي بضعة شأنه... واستعلاء المسلم عليه... فإن كلا الأصليين له لا عليه.. ولم يكن الذمي بحاجة إلى تحذيره من لبسة المسلمين لأنه في قرارة نفسه كان يرى الشرف الأسمى ماثلاً في ارتدائه أزياء قومه ... ولعل الذمي كان عرضة لأن يُعير من قومه إذا لبس لبسة المسلمين، فهو حينئذ مقلد لا أصالة له.. فمن تطفُ بذهنه فكرة الإذلال كلما عرض لسنة عمر في الغيار يُسيئ إلى عمر والنبي والإسلام وهو لا يدري"(١). ويعضد كلام ابن القيم هذا ما ذكره ترتون في هذا الشأن حيث قال: " كان الغرض من القواعد المتعلقة بالملابس سهولة التمييز بين النصارى والعرب، وهذا أمر لا يرقى إليه شك" غير أنه يرى أنه "لم يكن ثمة ضرورة وقت الفتح لإلزام النصارى بلبس معين من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون، إذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاص، وكان النصاري يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون جبر أو إلزام، على أن الحاجة استلزمت هذه الفروض فيما بعد حين أخذ العرب بحظ من التمدن(٢).

ويحكى عن قبط مصر في بيوتهم من اتساع الأحوال والنفقات حتى أن الواحد منهم يكون في ديوانه بأردى اللباس ويأكل أدنى المأكل ويركب الحمار، حتى إذا صار في بيته انتقل من حال إلى حال وخروج من عدم إلى وجود(٣). ولأن المسلمين وهم الفاتحون والقائمون في الأمصار الإسلامية فهم جميعاً في حكم الجنود يلبسون ملابس الحرب، وفي نفس الوقت عاش أهل الذمة في كنف هذه الدولة

(١) أحكام أهل الذمه، ج١، ص ٣١،ص ٣٢.

(٢) أهل الذمة في الإسلام. ترجمة : حسن حبشي. مصر . دار الفكر العربي، ١٩٤٩م، ص ١٢٢.

(٣) العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص ٥٢.

الناشئة والتزموا بواجبات معينة يؤدونها إلى المسلمين، فمعنى التشبه بالمسلمين الهروب من الإلتزامات المفروضة عليهم من خلال العهود المبرمة(١). كما أن إلزام النصارى باللون الأصفر واليهود باللون الأزرق لم يكن يمثل أي تحقير لهم(٢). فلم نسمع أن هذه الألوان سبه لمن يرتديها، ولم نعرف أنها اختصت بفئة متدنية في المجتمعات ولهذا خصصت لأهل الذمة، وإنما الأمر لا يعدو إلا أن يكون تمييزاً لهذه الفئات عن بعضها.

وكذلك لماذا نقول أن هذه الشروط جعلتهم يتحولون إلى الإسلام لكي يتخلصوا من هذا الزي؟ لماذا لا ننظر إلى إسلامهم على أنه عن اقتناع بسماحته حينما عاملوا أهله، فضلاً عن كونه اختيارهم، إذ هم قد خيروا بين الإسلام وبين عهد الذمة، فاختاروا الإسلام لسماحته، ولكنهم لم يرفضوا عهد الذمة لتدني وضعهم فيه .

كذلك يجب التأكد على أنه مجرد عقد هذه الشروط العمرية والإتفاق عليها بين المسلمين وأهل الذمة، فهذا العقد يعد اعترافاً ضمنياً أو دليل على أهمية هذه الفئة ودليل على قوتهم الضاربة ووجودهم القوى الذي استلزم وضع شروط تنظم العلاقة معهم، الأمر الذي يدل على عدم إغفالهم أو وضعهم في مرتبة متدنية أو ثانية، وإلا لما تم السعي في سبيل ترتيب أوضاعهم إن لم يكونوا ذا أثر وتأثير.

وبقي أن نذكر أنه – كما سبق وذكر – فإن هذه الشروط وضعها وارتضاها أهل الذمة بالشام أولاً ثم وافق عليها عمر بن الخطاب ثانية، إذاً فهي من وضعهم، كما أن الالتزام بهذه الشروط كان يُوصي به بطارقة الملكانيين واليعاقبة على

(١) نريمان عبد الكريم أحمد: معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، سلسلة تاريخ المصريين (٩٠) القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦م. ص ٦٣.

(٢) محاسن محمد الوقاد: اليهود في مصر في ضوء وثائق الجنيزة (٦٤٨ – ٩٣٢هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.ص١٤٥

السواء لأنهم كبراء أهل ملتهم والحكام عليهم، حيث تنفذ إليهم الوصية بهذا مكتوبة[١]. ولم يرفض هذا الأمر ويحتج عليه البطارقة، وإذن فقد رضوا به دون جدال، وإن كان فيه إجحاف لهم لكان سجل لهم التاريخ مراجعتهم للخليفة فيه، ولكنهم سلموا ورضوا بما أتوا به ووافقهم عليه خليفة المسلمين.

ولأن أهل الذمة قبل الفتح الإسلامي العربي لمصر كانوا الأغلبية، فقد نشأت بينهم وبين العرب المسلمين الفاتحين علاقات ود وتعاون حكمتها قواعد الشريعة الإسلامية، وهذا ما يفسر التحول البطيء لأبناء هذه الأغلبية القبطية من المسيحيين إلى الإسلام[٢]. وعلى هذا فظهور الإسلام أعطاهم فترة من الهدوء والاستقرار تحت حكم الخلفاء الأول الذين اتبعوا معهم سياسة عمر بن الخطاب[٣]. كما أن انتشار الإسلام الذي كان متواصلاً لم يكن دائماً على نفس الدرجة من القوة والاتساع إذ كثيراً ما خلف الحكام القامعين حكام متسامحون مترفقون[٤]. ومن هنا يستبعد المنصف ما أُتهم به الفاروق من اضطهاد الذميين أو إساءة معاملتهم، لأن من يدين بالإسلام الصحيح ويعرف ألا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، لا يمكن إلا أن تصفو نفسه من مظاهر التعصب، ويفيض قلبه بالتسامح والعفو والرحمة[٥].

ومع هذا فلا أحد ينكر أن العلاقة بين المسلمين والأقباط كانت تتسم في بعض الأحيان بالتوتر، هذا التوتر يعد شيئاً طبيعياً ليس مرجعه بالأساس إلى

(١) العمري: شهاب الدين أحمد: التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة- مطبعة العامة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م.ص١٤٤ص١٤٧

(٢) هموم الأقليات، ص ٢٥.

(٣) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ١٢٠.

(٤) موريس اليسوعي: الكنيسة القبطية، ص ١٦.

(٥) توفيق الطويل : قصة الاضطهاد الديني، ص ١٦٧.

اختلاف الديانة، بدليل أن المسلمين أنفسهم قد يختلفون ويفترقون.

ففي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١هـ/٧١٧-٧١٩م) [١] فقد أثر عنه أنه كتب إلى عماله "اعلموا أنه لم يهلك من هلك من قبلكم إلا بمنعه الحق وبسطه يد الظلم. وقد بلغني عن قوم من المسلمين أنهم إذا قدموا بلداً أتاهم أهل الشرك فاستعانوا بهم في أعمالهم وكتابتهم لعلمهم بالكتاب والجباية والتدبير، ولا خيرة ولا تدبير فيما يغضب الله ورسوله.. فلا أعلمن أن أحداً من العمال اتقى في عمله رجلاً متصرفاً على غير دين الإسلام إلا نكلت به[٢]". ويظهر من كلام عمر بن عبد العزيز أنه ينهي عماله عن استعمال أهل الشرك في الوظائف، بيد أن هذا النهي ليس صادراً عن كرهه واضطهاده لهم، ولكن هذا معتقده . ومما يبرر تصرفه هذا هو ومن سلك نفس طريقه في هذا الأمر من الخلفاء أن الدولة الإسلامية دولة عقيديه، توظف كل إمكانياتها من أجل مبادئها باعتبار أن السعي لتحقيق هذه المبادئ واجب ديني، فإنها راعت أن يباشر توجيه الدولة لأهدافها الدينية كوادر من المؤمنين بهذه العقيدة، دون أن يعني ذلك تمييزاً ضد من استبعدتهم من أن يكونوا موجهين لأهداف الدولة ممن لا يؤمنون بعقيدتها أو مبادئها[٣].

ومما يذكر في توتر العلاقة بين المسلمين والأقباط ما كان في عهد هشام

(١) عمر بن عبد العزيز : هوعمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم – تابعي جليل، بويع له بالخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك ٩٩هـ/٧١٧م، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر، كان عمر يؤثر دينه على دنياه، توفى سنة ١٠١هـ/٧١٩م." القضاعي : تاريخ القضاعي، ص ٢٣٠، ص٢٣١".

(٢) ابن القيم الجوزيه: أحكام أهل الذمة ج١، ص ٢١٢، ص ٢١٣.

(٣) كمال حبيب: الأقليات والسياسة، ص ٧٣.

بن عبد الملك. (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٣- ٧٤٢م) [١] ففي فترات من حكمه اشتد البلاء على النصارى وهدمت كنائسهم التي أحدثوها بمصر حتى هب القبط وقاموا بما سُمي "انتفاض القبط" في سنة ٢١٦هـ/٨٣١م فتصدى لهم هشام بن عبد الملك بعماله، حتى يذكر المقريزي في هذا "ومن حينئذ ذلت القبط في جميع أرض مصر، ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان"[٢]. والناظر في الخبر وفي وضع القبط في عهد هشام بن عبد الملك بصفة عامة يبصر لماذا نُكل بهم هكذا. فهم كما ورد عنهم لم يلتزموا بالشروط الواردة في عهد الذمة، حيث أحدثوا كنائس لهم بدون إذن، وهذا مما نهُوا عنه. كذلك يذكر أنهم كانوا ضاربين في طول البلاد وعرضها غير عابئين بما ورد في عهد الذمة . فقد ورد عنهم مخالفتهم لعمالهم على الولايات خاصة (رشيد) [٣]. وقاموا بقتل عدة من المسلمين، واستعملوا المكر والحيلة لمكايدة المسلمين[٤]، بالرغم من أن هشام بن عبد الملك هذا هو الذي راعاهم في بداية حكمه، وسمح لهم بتجديد كنيسة لهم سنة ١٠٦هـ/ ٧٢٤م حينما

(١) هشام بن عبد الملك: أبو الوليد.بويع له بعهد أخيه إليه سنة ١٠٥هـ/ ٧٢٣م وقضى في خلافة بني أمية تسع عشر سنة وسبعة أشهر، له سياسة وتيقظ في أمره، يباشر الأمور بنفسه، توفى١٢٥هـ/ ٧٤٢م."القضاعي .محمد بن سلامه: الإنباء بأنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء وولايات الأمراء. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري . صيدا – بيروت – المكتبة العصرية، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م ص ٢٣٦، ص٢٣٧".

(٢) تاريخ الأقباط. تحقيق: عبد المجيد دياب. دار الفضيلة، المغرب، ١٩٩٨م، ص ٢٦١، ص٢٦٣.

(٣) رشيد: بليدة على ساحل البحر والنيل قرب الإسكندرية، ينسب إليها جماعة من المحدثين منهم: عبد الوارث الرشيدي، قاضي رشيد، وأيضاً الأطروشي المحدث "ياقوت الحموي. أبوعبد الله: معجم البلدان، ألمانيا – معهد تاريخ العلوم العربية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، مج٢، ص ٧٨١،ص ٧٨٢.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، مج٤، ص ١٠٠٠،ص ١٠٠٢.

شكوا إليه أنهم لا يأمنون على حريمهم وأولادهم عندما يمضوا إلى الكنائس الداخلة بمصر من معترض يعترضهم، وعلى هذا سمح لهم بتجديد كنائسهم(١). أي أن الرجل كان متسامحاً معهم سامعاً لهم، فما الذي يدعوه إلى معاقبتهم إذن؟ إلا أن يبدءوا هم بمخالفته ومخالفة ما تعاهدوا بإلتزامه من شروط في عهد الذمة . والمعروف أن من خالف منهم فلا عهد له ولا ذمة، فلماذا إذن هذه الانتفاضة وهم المخطئون . وكل مخطئ وجب معاقبته حتى ولو كان مسلماً.

أما في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢١م) (٢). فقد أصدر الحاكم عدداً من المراسيم التي نصت على فرض قيود اجتماعية على أهل الذمة، وتلزمهم بالتمييز عن المسلمين بالغيار تنفيذاً للشروط العمرية أو عهد الذمة، ولكن الحاكم بأمر الله بالغ في هذه الشروط وزاد عليها(٣). وبهذه المراسيم هناك من يرى أن أهل الذمة وضعوا موضع الخيار، إما الإلتزام بما فُرض عليهم من قيود، أو الإسلام، أو الهجرة. وإزاء صرامة القيود فقد ضأروا بالشكوى، وبلغ بهم الأمر أن تشبهوا بالمسلمين وتظاهروا بالإسلام فراراً من قسوة

(١) أبوصالح الأرمني: كنائس وأديرة مصر، ص ٣٨، ص ٣٩.

(٢) الحاكم بأمر الله الفاطمي: أبوعلى المنصور أمير المؤمنين ابن العزيز بالله نزار بن المعز، ولاه أبوه العهد ٣٨٣هـ/٩٩٣م وولي الخلافة الفاطمية ٣٨٦هـ/٩٩٦م، فلم يزل خليفة إلى سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م، إذ أنه خرج ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال فطاف ليلته ولم يرجع ،وبقى الناس يخرجون كل يوم يلتمسون رجوعه. وقد اكتنف الغموض اختفاءه حتى قيل أن أخته ست الملك هي من حرضت على قتله." ابن حماد.محمد بن علي: أخبار ملوك بني عبيد: تحقيق: تهامي النقرة/ عبد الحليم عويس، مصر – دار الصحوة، ١٩٨٠م.ص٩٥".

(٣) ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة. تحقيق: عبد العزيز جمال الدين . القاهرة ٢٠٠٦. مج٢، ص ١١٢٠.

القيود المفروضة عليهم[١]، فأسلم منهم الكثير. ثم رجع الحاكم عن ذلك وسمح لمن أسلم بالردة عن الإسلام، وأذن لهم في عمارة كنائسهم[٢].

إذن يثبت من هذه الأقوال والأحداث أن أهل الذمة في عهد الحاكم بأمر الله قد قاسوا أشد صنوف العذاب، ولكن هل كان هناك سبب يستوجب هذا الفعل من قبل الحاكم؟ يذكر المقريزي أن كثيراً من أهل الذمة قد تمكن من أعمال الدولة حتى صاروا كالوزراء وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم فاشتد بأسهم وتزايد ضررهم ومكايدتهم للمسلمين، الأمر الذي أغضب الحاكم بأمر الله[٣]. وكذلك يجب أن نعرف لماذا الحاكم في غضبه كان شديداً؟ لقد سلك الحاكم في بداية حكمه مسلكاً طيباً مع أهل الذمة حتى أنه استعملهم في كثير من الوظائف في البلاد بشكل أثار حفيظة المسلمين الذين ثاروا على الحاكم لاستخدامه لأهل الذمة دونهم، فكان أن عزل كثيراً منهم وولى المسلمين تهدئة للأوضاع[٤]. ثم كان ما ذكر عنهم من اتساع أحوالهم وكثرة أموالهم. فيفهم من هذا أنه ما كان شأن الحاكم من البداية اضطهادهم، وإنما هي رد فعل على ما قاموا به. هذا بالإضافة إلى أن الحاكم نفسه ليس هو من يعول على تصرفاته أو نعتبرها سمة الحكم الفاطمي، لأن شخصية الحاكم كانت غريبة مختلفة الأطوار بدليل أن المعاملة السيئة التي لاقاها أهل الذمة في عهده قد نال المسلمون نصيب وكفل كبير منها.وهذه الشخصية الغريبة الأطوار

(١) ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة مج٢، ص ١١٢٩،ص ١١٣٠.

(٢) ابن المكين. جرجس بن العميد: تاريخ المكين. تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام ابن القاسم محمد حتى الدولة الأتابكية. تحقيق : على بكر حسن . دار العواصم- مصر، ٢٠١٠م، ص ٤٤٨/ كامل صالح نخله/ فريد كامل: تاريخ الأمة القبطية، خلاصة تاريخ الأمة القبطية – القاهرة ج ٤، د. ت ،ص١١٧.

(٣) المواعظ والاعتبار: مج٤، ص ١٠٠٧.

(٤) أبوالحسن الروحي: محمد بن أبي السرور: بلغة الطرفاء في تاريخ الخلفاء. تحقيق: عماد أحمد هلال وآخرون- القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.ص٣١٢

بتصرفاتها لم تكن خافية حقيقتها على أهل الذمة مثلما لم تكن خافية على المسلمين. ويشهد على ذلك أحد المؤرخين الأقباط وهو موريس اليسوعي الذي قال:" وكان الخلفاء الفاطميون باستثناء الخليفة الحاكم الذي هدم عدداً من الكنائس والأديرة يعاملون المسيحيين بالحسنى. ذلك أن هؤلاء الخلفاء وهم من الشيعة كانوا يرغبون في خلق نوع من التوازن مع المقاومة الشعبية السنية، حتى أن بعض المسيحيين أو الذين هم من أصل مسيحي قد توصلوا إلى تبوء المناصب الوزارية المهمة"(١). وعلى هذا فمصر الإسلامية لم يتبع كل حكامها وولاتها سياسة واحدة في معاملة الأقباط، بل اختلفت هذه السياسة ليناً وشدة، رأفة وعنفاً(٢). فما تعرض له أهل الذمة من فرض بعض القيود والتي صدرت في صورة أوامر ملزمة كان السبب فيها تصرفاتهم نتيجة عدم التزامهم بالشروط السهلة المفروضة عليهم في البداية، ثم زيادة سطوتهم أدى إلى إصدار مثل هذه الأوامر في أوقات متفرقة والتي لم يُلتزم بها في الغالب(٣).

إلا أنه يُوجد شبه إجماع على أن عصر المماليك (٦٤٨-٩٢٢هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) هو العصر الذي قاسى القبط فيه كثيراً تحت حكم حكامه، فقد كان المجتمع المصري بطبقاته الاجتماعية المتباينة وطاقاته البشرية المتنوعة هو حجر الأساس الذي اهتم المماليك بجعله متماسكاً لكي يتم لهم الاستمرار في حكم هذه الدولة المترامية الأطراف، ولكن من جانب آخر لم يكن المماليك يمثلون على الدوام مصدراً فعالاً للطمأنينة والأمان والسلام(٤). ولم تكن روح الوئام والوفاق الاجتماعي

(١) الكنيسة القبطية، ص ١٩.

(٢) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ١٢٠.

(٣) ناريمان عبد الكريم: معاملة غير المسلمين، ص ٦٩.

(٤) حياة ناصر الحجي: أحول العامة في حكم المماليك (٦٧٨- ٧٨٤ه/ ١٢٧٩-١٣٨٢م) دارسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية. الكويت، ط٢، ١٩٩٤م، ص ٢٨٥.

هي السائدة على الدوام في العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة، وحوادث المشاحنات بين الفريقين حدثت في بعض الأحيان لكي تعكر من صفو العلاقات بينهما[١]. وبلغت الجماعات المسيحية في مصر أدنى درك من التقهقر بعدما توطد في مصر حكم السلاطين المماليك[٢]، حتى لقد وصف عصرهم بأنه كان شؤماً على الكنيسة، خربت فيه البيع تخريباً فظيعاً وصودرت ممتلكاتها وهدمت معظم الأديرة وضوعفت الجزية على القبط، وقتل من قتل، وأسلم من أسلم حتى أشرفوا على الفناء[٣]. وكانت طائفة الأقباط المنتشرة في مصر في عصر المماليك هي طائفة المسيحيين اليعاقبة، ولم تكن سياسة المماليك في معاملة هؤلاء واحدة، بل اختلفت ليناً وشدة[٤].

وخلاصة القول، فقد اجتمع الكثير على أن دولة المماليك قد طغت وبغت وعثت في الأرض فساداً وأوردت الأمة موارد العناء والشقاء[٥].

ولكن الحق يقال أن المسار العام لعلاقة الدولة الإسلامية بأهل الذمة كانت تقوم على حمايتهم والإحسان إليهم والعدالة معهم، ولم يكن نمط الأزمة في العلاقة بين الدولة الإسلامية وأقلياتها إلا نمطاً استثنائيا لا يعبر عن المسار العام لهذه العلاقة التي تعبر عن الإحساس إلى أهل الذمة استناداً إلى الشرح الإسلامي[٦].ومثل هذه الحوادث اتخذت طابعاً فردياً، كما لم تأخذ طابع الاستمرار ولا يمكن أن تقلل من قيمة الحقيقة القائلة بأن أبناء الأقليات الدينية من المسيحيين واليهود في مصر

(١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٢٧٤.
(٢) موريس اليسوعي: الكنيسة القبطية، ص ٢٠.
(٣) كامل صالح نخله/ فريد كامل: تاريخ الأمة القبطية، ص١٢٩.
(٤) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ١٢١.
(٥) توفيق عزوز: الهدية التوفيقية، ص ٤٩.
(٦) كمال حبيب: الأقليات والسياسة، ص ١٩٩.

عاشوا في رحاب المجتمع المصري كجزء منه، ومن الطبيعي دائماً أن تحدث بعض المشاحنات بين أبناء البلد الواحد الذين تجمعهم ديانة واحدة، فما بالنا بالذين يجمعهم ديانات مختلفة(١).

إلا أنه مما لا يمكن إنكاره أنه بالرغم من روح المودة والتعاون، إلا أن الأقباط ظلوا يعاملوا بدرجة أقل من المساواة في الحقوق والواجبات، كما أنهم تعرضوا في لحظات تاريخية وإن كانت قصيرة وعابرة لصنوف مختلفة من التفرقة والاضطهاد وخاصة في أوقات الضيق الاقتصادي والاستبداد السياسي العام التي عانى منه كل سكان مصر(٢).

وقد فسر البعض هذا السلوك الذي مارسه بعض سلاطين المماليك على أهل الذمة على أنه إما إرضاء لنزعه دينية لديهم، وإما لرغبة منهم في الظهور بمظهر حماة الدين الإسلامي، أو مراعاة المشاعر العامة، أو إرضاء لرجال الدين المسلمين ذوي النفوذ الواسع آنذاك(٣).

وهناك من يرى أن فترة الاضطهاد لأهل الذمة وقع في العصر العباسي على وجه الخصوص. وكان مرجعه في الأغلب الأعم إلى أسباب سياسية أو خصومات شخصية أو أدبية أو دينية أو عقلية لا يحمل الدين زرها. ومثل هذه الأسباب تقال في كل وجوه الاضطهاد، ولكنها تعزى إلى الإسلام بهتاناً وزوراً(٤)، استناداً إلى اختلاف ملتهم عن أهل الذمة.

ولعله يجب تفصيل القول في هذه الأسباب التي دعت إلى وجود مثل هذه

---

(١) قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك.ص٢٧٥.

(٢) هموم الأقليات : ص ٢٥.

(٣) محاسن الوقاد: اليهود في مصر، ص ١٣٢.

(٤) توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني، ص١٦٩.

العلاقة المتوترة في بعض الفترات بين المسلمين وأهل الذمة:-

-**العامل السياسي** : كانت الحروب الصليبية والتي قامت في أوروبا ومصر في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين من العوامل التي ساعدت على عدم معاملة المماليك للأقباط المعاملة الطيبة، فإن هزيمة قوات المماليك أمام قوات غرب أوربا كانت تستتبع انتقام المماليك لأنفسهم من أقباط مصر، كذلك لم يكن انتصار المماليك، على الصليبيين خيراً ونعيماً في كل الأحوال للمسلمين في مصر، فقد كان ينسب إليهم في بعض الأحوال أنهم يشعلون النار في أحياء القاهرة، وكان المماليك والشعب ينتقمون منهم أشد الانتقام(١). فما ارتكبه الصليبيون من أهوال خلق مشاعر تفيض بالمرارة، الأمر الذي كان له ردة فعل عنيفة ضد أهل الذمة(٢). أي أنه في أوقات الغزو الخارجي كان المسلمون يهاجمون منازل وكنائس الأقباط انتقاماً لا شعورياً منهم لتدنيس الفرنج للديار الإسلامية، ومما يذكر أن عامة الناس في رؤيتها للجهاد والذي يتخذ طابعاً دينياً لم تفرق بين الفرنجي المسيحي والمصري المسيحي، لأن الجهاد آنذاك لم يكن يستوعب بحكم مفاهيم العصر العناصر المصرية غير المسلمة، بل انقلب بعض العامة على الأقباط لاشتراكهم مع الغازي في الدين، فالوحدة هنا وحدة دينية(٣). فهذا الهجوم الصليبي على العالم الإسلامي قد شكل عواطف المسلمين وآثار حفيظتهم تجاه مواطنيهم من غير المسلمين، لذا فإن سلوك الجماهير المسلمة هنا لا يعبر عن المسار العام الذي تمثله العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين (٤)

(١) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ١٢٠.

(٢) فوزي محمد أمين : ملامح المجتمع المصري. أدب العصر المملوكي. مصر – دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٣م، ص ٢٢٥.

(٣) رفيق حبيب/ محمد عفيفي: تاريخ الكنيسة المصرية، ص٢١١.

(٤) كمال حبيب : الأقليات والسياسة، ص٢٠٢.

في الدولة الإسلامية وعُدت مصر – من وجهة نظر البعض – في عهد المماليك في أسوأ حال لعدم معرفة ملوكها كيف تساس البلاد، فأصبحت مصر في أيامهم ميدان قتال وفتن وحروب داخلية خصوصاً وأن المماليك كانوا منقسمين إلى أقسام وأحزاب شتى يحاول كل حزب منهم الاستيلاء على عرش السلطنه، فكثرت المخاصمات والقتال ظناً منهم أن الاشتداد على الأهالي وقتل الكثير منهم على أقل سبب يزيد في هيبتهم، ويوقع الرعب والخوف في قلوب الناس من جهتهم(١).

-**عوامل اجتماعية** : وهناك من يرى أن تلك العوامل هي التي أدت بسلاطين المماليك إلى أن حسدوا أهل الذمة على ثروتهم وطمعوا في الاستيلاء عليها، وهم مطمئنون إلى أنهم لن يتعرضوا في هذه الحالة لنقد أو معارضة من الفقهاء(٢).

هذا وقد أدى أيضاً استغلال أهل الذمة لوظائفهم وذلك بإثرائهم واستخدام نفوذهم لصالح طائفتهم ضد المسلمين إلى إثارة مشاعر العامة(٣)، ورغم هذا فلم يكن للمماليك غنى عن استخدام أهل الذمة في وظائف الدولة الإدارية لخبرتهم في هذا المجال، الأمر الذي كان يثير سخط المسلمين لما يلحظوه من ثراء هؤلاء العمال على أهل الذمة وتعاليهم وتماديهم في ابتزاز أموال المسلمين بغير الحق، في الوقت الذي يتهاونون فيه مع أبناء ملتهم، ويعملون في الخفاء على مد الكنائس والأديرة بالمال حتى قيل في هذا شعراً، ومما قيل:

قالوا بزي الأقباط قد رزقوا حظاً وأصبحوا كالسلاطين

(١) يعقوب نخلة: تاريخ الأمة القبطية. القاهرة، دار العالم العربي، ط٣، ٢٠٠١م. ص٢٢٠ص٢٢١

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك- القاهرة- دار النهضة العربية، ١٩٦٢م.ص٤٢

(٣) كمال حبيب: الأقليات والسياسة، ص ١٩٩.

وغللوا الأموال قلت لهـــم رزق الكلاب على المجانين[١]

ومع ذلك يجب الاعتراف أن المنازعات التي قامت بين المسلمين والأقباط لم تعد أن تكون حوادث فجائية لا تؤثر في تلك الحقيقة الواضحة الملموسة وهي أن المصريين قبطاً ومسلمين كانوا يعتبرون أنفسهم جنساً واحداً يشترك فـــي تحمـــل عسف بعض أمراء المماليك[٢]، ومن ذلك يذكر أنه كان يوجد قبطي يسمى بالحنش النصراني كان شديد الثراء، فكان يواسي من ماله هذا الفقراء من كل ملة، واشتهر أمره وأنفق أموالاً عظيمة، وحينما جرت معه محاولة معرفة حقيقة أمره ومـــصدر أمواله أخذ يراوغ حتى أفتى أكثر من واحد بقتله خوفاً على ضعفاء الإيمـــان مـــن المسلمين أن يضلهم ويغريهم. غير أنه على ما يبدو أنه لم ينفذ فيه القتل إذ تـــوفى الرجل سنة ٦٦٦هـــ/١٢٦٨م[٣].

ويبدو أن مفهوماً خاطئاً ساد عقول بعض أهل الذمة من النصارى وهو أنهم أصحاب البلاد وأن المسلمين غاضبون لذلك، فهم يبيحون لأنفسهم كل ما يصل إلى أيديهم من أموال على أنها بعض حقوقهم[٤]. ويحفظ التاريخ عن قبطي عمل كاتبـــاً ويعرف بالراهب أنه كان يصادر أموال الكثير ممن كانوا بالديار المصرية، فخّوفه بعض مشايخ الكتاب من سوء العاقبة، وكان جماعة من كتاب مصر وقبطـــه فـــي مجلسه فقال مخاطباً للشيخ ومسمعاً للجماعة:" نحن ملاك هذه الديار حرباً وخراجاً، ملكها المسلمون منا وتغلبوا عليها واستملكوها من أيدينا، فنحن مهما فعلنا بالمسلمين

(١) فوزي أمين: المجتمع المصري، ص ٢٢٧.

(٢) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ١٢١.

(٣) اليافعي اليمني المكي. عبدالله بن أسعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان. القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٣هـــ/ ١٩٩٣م. ج٤، ص١٦٥ص١٦٦

(٤) فوزي أمين: المجتمع المصري، ص ٢٣١.

فهو قبالة ما فعلوا بنا.. فجميع ما نأخذه من أموال المسلمين حل لنا... فإذا حملنا لهم مالاً وإلا كانت المنة لنا عليهم" فاستحسن الحاضرون من النصارى ما سمعوه منه، وقد كان هذا زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي والذي غضب حينما سمع بذلك و أصدر أوامره بإلباس أهل الذمة الغيار، وأمر ألا يولوا شيئاً من أعمال الإسلام(١). وطبيعي أن يجد هذا المفهوم مفهوماً مقابلاً لدى بعض المسلمين من أنهم الفاتحون وأنهم أحق بالبلاد(٢).

وفضلاً عن هذه التصرفات والتي يمكن أن تعد على أنها حوادث فردية، فإن أهل الذمة في كثير من الأحيان لم تحترم عهد الذمة والإلتزام بما ورد به، وكان من الأمور التي لم يلتزموا بها ألا تعلو أبنيتهم فوق أبنية المسلمين. كما قاموا بترميم دور العبادة، وكانت مثل هذه الأعمال تتم حينما يتولى الحكم سلاطين من المماليك أقل تعصباً، وذلك لأنها كانت تتم تحت حماية هؤلاء المماليك(٣)، مما دفع عوام المسلمين بالهجوم على دور العبادة لأهل الذمة كلما شعروا أن هناك مبالغات في التوسع في هذه الدور، كما لعبوا دوراً كبيراً في الاحتجاجات ضد ممارسات العمال الذميين، لكنهم وبحكم أن المشاعر والعواطف هي التي تحكم سلوكهم وتفكيرهم فإن مشاعرهم قد تقودهم إلى تجاوز الحد(٤). كما يجب ألا نغفل دور المنتفعين من أعمال العنف والتوتر والذين يقع على عاتقهم تأجيج نار الفتنة والاندساس وسط الغاضبين لتحريك الأمور إلى ما لا يحمد عقباه .

كذلك لم يتقيد أهل الذمة بالشروط العمرية التي التزموا فيها بعدم إظهار شئ مما يأتونه أمام المسلمين ومن ذلك أنهم شربوا الخمور وابتاعوها، وحينما

(١) ابن قيم الجوزيه: أحكام أهل الذمة، ج١، ص ٢٢٦،ص ٢٢٧.
(٢) فوزي أمين : المجتمع المصري، ص٢٣٣.
(٣) محاسن الوقاد: اليهود في مصر، ص ١١٨.
(٤) كمال حبيب: الأقليات والسياسة، ص ٢٠١.

تفشى هذا الأمر تم الهجوم ٦٦٨هـ/١٢٧٠م على دور النصارى واليهود في دمشق وأبطلت فيها الخمور حتى أنهم كتبوا على أنفسهم أنه لم يبق عندهم منها شيء[١].

وهناك عامل آخر ربما يكون سبباً قوياً ومباشراً ويمكن أن نعده من العوامل الأول التي تسببت في تلك الاضطرابات بين المسلمين وأهل الذمة، ألا وهو الفهم الخاطئ أو الناقص من جانب المسلمين لبعض آيات القرآن الكريم والتي في ظاهرها تنهي عن استعمال اليهود والنصارى أو تحذر منهم. وهذا الفهم الخاطئ وعدم النظر إلى أسباب نزول الآيات يجعل النفس تلقائياً تنفر من التعامل معهم أو استخدامهم، ويخلق عند المسلمين شعوراً بالحذر وأحياناً سوء المعاملة لأهل الذمة ومن هذه الآيات قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ)[٢] . وقال عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) [٣] .وقال الحق: (لاتَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين) [٤] هذه العوامل كانت من جانب المسلمين تجاه أهل الذمة.

ولكن يجب أن نقرر أيضاً أن هناك عوامل دفعت أهل الذمة إلى الخروج أحياناً عن الإلتزام بالشروط العمرية، ولهم أسبابهم التي ساهمت في حدة التوتر في العلاقة بينهم وبين المسلمين ومنها: تولد الشعور بالاضطهاد عندهم بسبب عهد الذمة والجزية التي فرضت عليهم، وعدم حريتهم في بناء الكنائس أو تولى

(١) الذهبي .الحافظ: العبر في خبر من غبر(من سنة ٥٤٧ إلى سنة ٧٠٠ه) تحقيق: أبوهاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول- بيروت- لبنان – دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م، ج٣، ص ٣١٧.

(٢) سورة الممتحنة آية (١).

(٣) سورة المائدة، آية (٥١)

(٤) سورة المائدة: آية (٥٧).

الوظائف والمناصب الإدارية المهمة، الأمر الذي وصل بهم إلى حد الشعور بالاغتراب[١]. ورب قائل بأن أبناء الأقليات في مصر زمن المماليك مصريون مثل المسلمين، ومن ثم فإن لهم الحقوق نفسها وهذا الكلام صحيح، غير أنه ينبغي أن نعيش الحدث التاريخي من داخله لكي نتفهمه بشكل يقربنا إلى الحقيقة قدر الإمكان، ويعني هذا أن نحاول أن نتمثل المفاهيم والقيم التي كانت تتحكم في الناس من تلك الفترة التاريخية. ومن العبث المضلل أن نحاول إلزام الناس في تلك العصور بمثلنا وقيمنا، ونحاسبهم إذا لم يتصرفوا على أساسها لسبب بسيط هو أنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن مثل هذه المُثُل والقيم والمفاهيم التي نطالبهم بها[٢].

على أن القول بأن شعور أهل الذمة بالاضطهاد يعزى إلى عدم توليهم الوظائف المهمة فهذا غير صحيح على الدوام، بل على العكس كان من نتيجة توليهم الوظائف المهمة وثرائهم من ورائها وتعالي بعضهم على المسلمين – كما سبق وذكر– سبباً في إصدار المراسيم التي تدعو إلى عزلهم منها والمعروف أن العزل يأتي عقب التوليه، وإلا فمن يعزلون؟.

هذا بالإضافة إلى شعورهم بالدونية وبأنهم محتقرون وأصحاب مرتبة ثابتة وقد تولد هذا الإحساس والشعور عندهم نتيجة للفهم الخاطئ أيضاً لبعض آيات القرآن من جانبهم، ولم لا ؟ فقد أساء فهمها بعض المسلمين من قبلهم، فرأى أهل الذمة أن كتاب المسلمين يحتقرهم ويدعوا إلى الحذر منهم واجتنابهم؟ الأمر الذي يؤدي بهم إلى كراهيتهم للمسلمين ولكتابهم، ولو علموا حقيقة الأمر لما شعروا بما شعروا.

على أنه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن عصر سلاطين المماليك بمصر امتلأ

(١) رفيق حبيب: محمد عفيفي: تاريخ الكنيسة المصرية، ص ٢١٠، ص ٢١٦.

(٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٢٨٠.

من أوله إلى آخره بالاضطهاد المتواصل ضد أهل الذمة، لأن هذه الاضطهادات اتخذت في الواقع شكل زوابع تهب بين حين وآخر وتستمر مدة من الزمن تطول أو تقصر حسب الأحوال، ثم لا تلبث بعد ذلك أن تعود الأوضاع إلى الهدوء تدريجياً، فيتخلص أهل الذمة من القيود التي فرضت عليهم قيداً بعد آخر، ثم لا تلبث أن تأتي موجة اضطهاد أخرى لأي سبب من الأسباب(١).

وحول هذا الوضع المضطرب نصل إلى موضع البحث وهو (انتفاضة القبط في ٧٢١هـ/ ١٣٢١م) ولكن قبل تناول هذه الانتفاضة يجب أن نمر على بعض الأحداث التي وقعت بين المسلمين وأهل الذمة في العصر المملوكي على طريق الشد والجذب بينهما والتي أدت إلى هذه الانتفاضة :

-ففي ٦٢٥هـ/١٢٢٧م تم ضرب راهب نصراني وقطعت رقبته بالقاهرة وذلك لأنه خاض في سيرة سيدنا محمد (ﷺ) وذلك بعد أن شهد عليه الشهود بفعله هذا، فصدر حكم القاضي عليه بالقتل(٢).

-وفي سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م أخذ هولاكو(٣) على عاتقه حماية نصارى دمشق الذين جاهروا بشرب الخمر في رمضان واهراقه على ملابس المسلمين

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٤٢، ص ٤٣.

(٢)ابن الجزري.أبوعبد الله محمد بن إبراهيم : تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري- بيروت -المكتبة العصرية ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص ٦٢.

(٣) هولاكو: الإبن الرابع لتولوي خان (الإبن الرابع لجنكيز خان) كان له الكثير من النساء والجواري والأبناء، أرسل إلى إيران للمحافظة عليها من الملاحده، فتم تنصيبه هناك حاكماً عليها ودان له أهلها وأمراؤها بالطاعة. "الهمذاني. رشيد الدين فضل الله: تاريخ المغول الأيلخانيين. تاريخ هولاكو. دمشق – وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٦٠م، ج١، مج٢، ص ٢٢٠ ،ص ٢٤٠".

ورشهم به وإراقته على أبواب مساجدهم، وكانوا إذا خرجوا محتفلين بالصليب أرغموا أصحاب الحوانيت على الوقوف لهم، فمن رفض الامتثال لأوامرهم أساءوا معاملته، وكانوا يقيمون الاحتفالات تمجيداً لدينهم، فإذا تذمر المسلمون ضربوهم . فلما طُرد التتار شرع المسلمون في نهب بيوت النصارى، وهدموا كل ما استطاعوا إلى هدمه سبيلا، وحطموا كنيستين، وذبحوا الكثير من النصارى واسترقوا بعضهم، وبذلك تم لهم الانتقام لأنفسهم من أولئك الذين خربوا مساجدهم. ولم يكتفوا بما ألحقوه بالمسيحيين، فانثالوا على بيوت اليهود نهباً وصيروها أكواماً من القمامة(١). وهذا يؤكد على حقيقة العامل السياسي وكيف أن الهجوم على العالم الإسلامي أثار حفيظة المسلمين ضد غيرهم من أبناء الملل المختلفة.

-وفي ٦٩١هـ/ ١٢٩١م استاء الفقهاء والعامة في دمشق من رجل نصراني يعمل كاتباً لأحد أمراء دمشق تعرض إلى سب النبي (ﷺ) وأبلغوا عنه قاضي دمشق ابن تيميه (٢) الذي ذهب بدوره إلى نائب السلطنة وكلمه في هذا الأمر، فأجاب نائب السلطان ابن تيمية إلى إحضاره ومعاملته بالشرع، فوعده بذلك ابن تيميه، إلا أن العامة حينما رأوا هذا الأمير الدمشقي والذي كان يحمي النصراني لأنه كاتبه، فقد انهالوا عليه ضرباً، فاشتكى الأمير إلى نائب السلطنة، فغضب وأمر بإحضار ابن تيمية ونهره بالقول واعتقله، واعتقل عدد من المعتدين

(١) ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ٦١.

(٢) ابن تيميه: من أبناء القرن الثامن الهجري. صاحب ثورة الفقهاء. كان ينكر على الصوفية معتقداتهم .حوكم للمرة الأولى في الشام فأشهد على نفسه أنه شافعي المذهب، ثم حوكم مرة ثانية في مصر فاعتقل، وكان سبب تلك المحاكمات اختلافه مع ابن عربي حول كتابه نصوص الحكم، فسبه ابن تيمية وسب أصحابه ورد عليه بكتاب النصوص على الفصوص. أنشأ ابن تيمية مدرسة فقهية ابتعد فيها عن خط القضاء والفقهاء المتصوفه "ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة، ج٣، ص ٧٧١، ص ٧٧٩".

على الأمير واحتجز النصراني تحت رعاية نائب السلطنة، وتمت حيلة من نائب السلطنة حتى لا يتم ضرب عنق النصراني إذ أحضر النائب مجموعة من الفقهاء، وسألهم: هل يجوز أن يُحقن دمه إذا أسلم فقالوا نعم. فتم إطلاق صراح النصراني(١).

-على أنه من الأحداث المهمة التي كان لها تأثير كبير في علاقة المسلمين بأهل الذمة ما كان في ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م حيث حدث ما سُمي بـ (واقعة النصارى) ومفادها أن النصارى في عهد المنصور قلاوون ووزيره الشجاعي(٢)، كانوا في غاية الذل والمهانة، حتى أنه كان أكبر من فيهم يكون راكب حماره وزناره في وسطه، ولا يجسر يتحدث مع مسلم وهو راكب(٣). فلما مات المنصور قلاوون واعتلى عرش مصر ابنه الملك الأشرف خليل(٤)

(١) ابن الجزري: تاريخ ابن الجزري، ج١، ص ٢٠٢،ص ٢٠٤.

(٢) الشجاعي : الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، ولد في دمشق ثم انتقل إلى مصر وأصبح من مماليك الملك المنصور قلاوون، وتنقلت به الأحوال إلى أن تولى وزارة الديار المصرية ."ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم: تاريخ ابن الفرات. تحقيق: قسطنطين زريق – نجلا عز الدين. بيروت– المطبعة الأميركانية– ١٩٣٩ م ،مج ٨ ، ص ٩٦ ، ص١٨٨".

(٣) العيني. بدر الدين محمود : عقد الحمان في تاريخ أهل الزمان (عصر سلاطين المماليك حوادث وتراجم ٦٨٩ – ٦٩٨هـ – ١٢٩٠– ١٢٩٨م) تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج٣، ص ١٨١.

(٤) الأشرف خليل : تولى سلطنة المماليك بعد وفاة أبيه الملك المنصور ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م كان ملكاً مهيباً، كامل الشجاعة، وافر الكرم، مظفراً في حروبه– قتل غدراً في رحلة للصيد ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م فكانت مدة ملكه ثلاثة سنين وشهرين "ابن حبيب – الحسين بن عمر تذكرة النبيه في أيام المنصور ونبيه تحقيق: محمد محمد أمين ، القاهرة – مطبعة دار الكتب، ١٩٧٦م، ج١، ص ١٦٧".

وأنشئت الخاصكيه[١]، فقد خدم الكتاب النصارى عند الأمراء الخاصكيه، وقوّوا أنفسهم على المسلمين، وترفعوا في ملابسهم. وكان منهم كاتب عند خاصكي يُعرف بعين الغزال. هذا الكاتب تقابل يوماً مصادفة مع سمسار تأخر عليه مال من ثمن تجارة، فنزل السمسار عن دابته، وقبّل رجل الكاتب، فأخذ الكاتب النصراني يسبه وهو يعتذر له، وأمر النصراني غلامه فتثف السمسار ومضى به والناس تجتمع حولهم يسألون النصراني أن يخلي سبيل السمسار فأبى، فتكاثروا عليه وألقوه عن حماره و أطلقوا السمسار، فبعث الكاتب النصراني غلامه إلى بيت أستاذه ليبعث له من ينجده، فأتاه بطائفة من غلمان الأمير فخلصوه من الناس، فصار الناس إلى القلعة ونادوا على السلطان مستغيثين به[٢]، وعرفوه ما كان من استطالة الكاتب النصراني على المسلم السمسار، فطلب السلطان عين الغزال وصاح به "كيف تسلط غلمانك على المسلمين لأجل النصراني؟ فاعتذر بأنه لا علم له بشيء" ،فطلب السلطان من الأمير بيدرا نائبه[٣] والأمير سنجر الشجاعي بإحضار جميع النصارى لقتلهم، فمازالا يراجعان السلطان في طلبه حتى استقر الحال على أن ينادى في القاهرة ألا يخدم أحد من النصارى واليهود عند أمير. وأمر الأمراء أن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الإسلام، فمن أسلم استخدم، ومن امتنع

(١) الخاصكيه: شباب اصطفاهم الملك الأشرف خليل وهذبهم وخالصهم بالمحبة والصهر ورشحهم للمراتب وولي بعضهم، وكان الأكابر من أهل الدولة يفضون إليهم بحاجاتهم ويتوسلون بمساعيهم." ابن خلدون : العبر، ج٥، ص ٥٢٦".

(٢) المقريزي: تاريخ الأقباط، ص ١٢٤ ،ص ١٢٥.

(٣) بيدرا: أحد مماليك الملك المنصور قلاوون. تنقلت به الأحوال إلى أن صار وزيراً للملك المنصور، ولم يزل على وزارته إلى أن توفى الملك المنصور وأيام قلائل في أوائل ملك الأشرف، ثم جعله الملك الأشرف نائب السلطنة بالديار المصرية، وكانت نهاية بيدرا القتل عقاباً له على اشتراكه في مقتل الأشرف ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م ."ابن الفرات:تاريخ ابن الفرات.مج٨،ص١٨٨".

ضربت عنقه. وجاء وقت تنفيذ هذه الأمور، فاختفى النصارى من بيوتهم، فصارت الناس إلى بيوتهم تنهبها، وأخذوا نسائهم سبى، وهاجموا الكنيسة المعلقة، ونهبت أموال كثير من النصارى واليهود وقتل بعضهم، حتى نودي في الناس بأمر السلطان أن يكفوا عن ذلك، بل ويتوعدهم بأن "من نهب بيت نصراني شنق" فكف الناس أيديهم(١). ثم جُمع كثير من النصارى، فرأى الشجاعي أن يأخذهم إلى سوق الخيل ويحفر لهم هناك ويضرم عليهم النار، فتشفع بيدرا لهم عند الشجاعي فأبى، فلم يزل به حتى سمع بأن من أسلم منهم يستقر في خدمته، ومن امتنع ضربت عنقه وكان في هؤلاء النصارى رجل يعرف بـ (المكين) فقال "وأينا يختار القتل على هذا الدين الخرا؟ والله دين نقتل ونموت عليه بروح لا كتب الله عليه سلامة، قولوا لنا الذي تختاروه نروح إليه؟ فقال بيدرا: ويلك نحن نختار غير دين الإسلام! فقال : ما نعرف، قولوا نحن نتبعكم"، فأحضروا الشهود ونطقوا الشهادة(٢)". وعقب إسلامهم سأل الوزير قاضي البلاد عن إسلامهم فقال القاضي "إن الذليل صار عزيزاً، و العزيز بين المسلمين صار ذليلاً لهم، فإنه كان يمنعهم من ظلم الناس ومن التكبر عليهم كونهم نصارى، فالآن يقولون: نحن مسلمون، فيتسلطون عليهم والله يتولى سرائرهم". وكتب بعضهم لبيدرا بيتين وسيرهما إليه:

أسلم الكافرون بالسيف قهراً وإذا ما خلوا فهم مجرمونا

أسلموا من رواح مال وروح فهم سالمون لا مسلمونا

وقيل:

قل للمليك الأشرف ما تنتظر يا ناصر الدين ويا منتصر

قد أمكن الله من أعدائه في يوم بؤس نحسه مستمر

(١) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص ١٨٢.

(٢) المقريزي: الواعظ والاعتبار، مج٤، ص ١٠١٥،ص ١٠١٦.

فقلد السيف لأرقابهم واجعله على الكافر يوماً عسير

فلا يغرنك إسلامهم فكل من أسلم كذاب أشر[١].

وينبغي هنا توضيح عدة حقائق تعليقاً على تلك الحادثة:

- إن استخدام الأمراء للنصارى كتاباً عندهم أدى إلى أن داخل بعضهم الغرور معتمدين على جاه مخدوميهم وحمايتهم لهم، فدفعتهم هذه الأوهام إلى الترفع والتعاظم والتأنق في المعيشة والتجمل بلبس الثياب الفاخرة[٢].
- ما قيل من أن أهل الذمة في عصر المنصور قلاوون ووزيره الشجاعي كانوا في غاية الذل والمهانة فهذا قول يُجافي الحقائق، فقد ثبت عن المنصور قلاوون أنه كان يبطل الكثير من المظالم والمكوس ومن ضمنها ما كان يؤخذ من أهل الذمة من كل واحد دينار – وهو غير الجزية – لنفقات الجند[٣]. كما أنه أحسن إلى رعيته مسلمين وأهل ذمة. إذ يذكر أنه في ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م أمر المنصور بتأخير جباية الجزية من أهل الذمة والتي كانت تجبى في شهر رمضان، فأخرها إلى شهر المحرم وذلك رفقاً بهم وتخفيفاً عليهم[٤]. وهو وإن اتخذ إجراءات مشددة ضدهم في حادثة (واقعة النصارى) فهذا أمر تطلبه الواقع ردعاً لهم،وما كان فعله معهم إلا ردة فعل لما فعل بعضهم من إذلال المسلمين وإهانتهم.

-أما ما ذكر عن إسلامهم عقب ذلك مجبرين وإلا ضربت عنقهم، فهناك

(١) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص ١٨٤، ص ١٨٥.

(٢) يعقوب نخله: تاريخ الأمة القبطية، ص ٢١٠.

(٣) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص ٢٠.

(٤) المقريزي. تقي الدين: السلوك لمعرفة دول الملوك. نشره: محمد مصطفى زيادة. القاهرة، لجنة التأليف الترجمة والنشر، ١٩٣٩م.، ج١ قسم ٣، ص ٧١٢.

حقيقة جلية عن إسلامهم نتيجة لاضطهادهم على حد قولهم، ألا وهي أن إسلامهم على هذا النحو يدل على عدم تدينهم الحق، وإيمانهم بصدق معتقدهم وتمسكهم بملتهم، وإلا لما تركوها إلى غيرها رغبة في عرض زائل، فتحولهم إلى الإسلام هرباً من القيود أو طمعاً في المناصب أمر يلقي باللائمة عليهم، ولو كانوا صادقين مصدقين في معتقدهم لما فعلوا. أفلم ينظروا إلى المسلمين الأوائل وما أصابهم من اضطهاد وتعذيب من كفار قريش ؟ وما حولهم ذلك عن مبدأهم، وما عدلوا عن دينهم إلى آخر غيره، ولم يغيروا أو يبدلوا عقيدتهم وإسلامهم، وما كانوا ليبغون عرض الدنيا. فما بالنا بالذين يتركون دينهم للتخلص من بعض القيود التي استلزمت المصلحة فرضها، أو رغبة في منصب دنيوي. وعلى هذا فاللائمة عليهم.

مقدمات أحداث ٧٢١ه/١٣٢١م

-واستكمالاً لواقعة النصارى وفي سلطنة الناصر محمد[١] حدث ما عمق الهوة بين المسلمين والنصارى. ففي ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م قدم إلى مصر وزير ملك المغرب وبينما كان يمر في سوق الخيل وجد نصرانياً راكباً على جواد [٢] ويلبس عمامة بيضاء ويحيط به جماعة يقبلون قدميه ويسألونه شيئاً وهو يعرض عنهم[٣]، فقصدوا الوزير المغربي أن يحدثه بشأنهم، فلما علم أنه نصراني أبى أن يحدثه[٤]،

(١) الناصر محمد: أبو المعالي محمد بن المنصور قلاوون الصالحي، كان حسن الآراء والتدبير، وافر السطوة، حكمه عادل، وكان الحق ناصراً، هادنته ملوك الطوائف وتقربت إليه وساس الملك أحسن سياسة، كما كان محباً للرقيق والخيل، توفى ٧٤١هـ /١٣٤٠م"الدمشقي. الحسن بن عمر: المنتقى من درة الأسلاك في دولة ملك الأتراك في تاريخ حلب الشهباء. انتقاه: مؤلف مجهول. تحقيق : عبد الجبار زكار. دار الملاح، دمشق، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ١٧٥،ص ١٧٦.

(٢) زدرشتين: تاريخ سلاطين المماليك – ليدن – برل، ١٩١٩م، ص ٨٤.

(٣) المقريزي: تاريخ الأقباط، ص ١٢٧.

(٤) الإسحاقي المنوفي. محمد عبدالمعطي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول – القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٨م.ص١٣٧.

وتوجه الوزير المغربي إلى السلطان الناصر ووزيره وقص عليهم ما رآه[١]، ونقل لهم تعجبه وإنكاره ما عليه النصارى واليهود في مصر من ترف[٢]، وكونهم يلبسون أفخر الثياب، ويركبون البغال والخيل، وأنهم يستخدمونهم في أجل الجهات ويحكمونهم في رقاب المسلمين، على عكس أهل الذمة عندهم في المغرب والذين لا يتمتعون بهذا الترف، الأمر الذي لا يؤدي إلى تطاولهم على المسلمين، فكان أن أثر كلامه في القلوب[٣]، وصدرت الأوامر السلطانية بألا يستخدم اليهود والنصارى في الجهات السلطانية ولا عند الأمراء[٤]، وأن يغيروا زيهم[٥]، فيلبس النصارى

(١) مفضل بن أبي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك، النهج السديد والدر الفريد فيمابعد تاريخ ابن العميد. تحقيق: بلوشت ادجار – فرنسا – باريس، ٢٠٠٤م. ، ج٣، ص ٣٩/ الأنبا ايسيذورس: الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسه.مصر،١٩٩١م،ج٢،ص٣٩٨ص٣٩٩

(٢) ابن خلدون . عبد الرحمن – محمد : العبر ديوان ابن المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت ، مؤسسة الأعلمى، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م،ج٥،ص٤١٦.

(٣) الدواداري. أبوبكر عبدالله بن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر) تحقيق : هانس روبرت رويمر. القاهرة – المعهد الألماني للآثار ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م ، ج٩ ص ٥١.

(٤) النويري. محمد بن قاسم: الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الإسكندرية . تحقيق : عزيز سوريال عطية – الهند – حيدر أباد – الدكن ، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ج٤، ص ١٢٢/ ابن سباط .حمزة بن أحمد بن عمر:تاريخ ابن سباط .تحقيق : عمر عبد السلام تدمري . طرابلس، جروس برس ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ج١، ص ٥٢٣.

(٥) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية في الدولة التركية ، تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من ٦٤٨ – ٧١١هـ. نشةر: عبد الحميد صالح حمدان. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية ط١ ، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م، ص ١٦١/ ابن إياس. محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق : محمد مصطفى. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.، ج١، ص ٤٠٨.

عمائم زرقاء وزنانير مشدودة في أوساطهم[١]، وأن يلبس اليهود عمائم صفراء[٢]، وأن يركبوا الحمير خاصة مُنفلي الأرجل – يثنى أحدهم رجله أمامه على الدابة[٣]– وقرئت الشروط على أهل الذمة بحضورالقضاه[٤].

ومما يذكر أن بعض النصارى قد تكبر وتعالى عن لبس الأزرق، واحتموا ببعض الأمراء، فنودي في القاهرة بأن كل من لا يلبس الأزرق من النصارى والأصفر من اليهود ينهبه العامة ويستحل ماله ولا يستخدم إلا إذا أسلم[٥]. وعبثاً سعى بعض اليهود والنصارى ببذل الأموال للسلطان والأمراء مقابل أن يعفوا من التزامهم بالزي، لكن لم يُقبل منهم شيئاً[٦]. فما كان منهم إلا الإلتزام مكرهين حيث قال بطريك النصارى: "حرمت على أهل ملتي وأصحابي مخالفة ذلك والعدول عنه" وقال رئيس اليهود: "أوقعت الكلمة على أهل ملتي وطائفتي في مخالفة ذلك

(١) أبوالفدا. عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر ، القاهرة، ط١ ج٤ ، ص ٤٦/ اليافعي اليمني: مرآة الجنان ، ج٤ ، ص ٥٣٤.

(٢) ابن الوردي. زين الدين عمر بن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، المطبعة الحيدرية، النجف، ط٢، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م ح٢، ص ٣٥٦./السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٢٢٩/ محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبي – القاهرة – ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، ج،١ ق ٢، ص٣٩٦.

(٣) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار. تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى ٧٠٢هـ. تحقيق عبد الحميد صالح حمدان القاهرة . الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ، ص ١١٦.

(٤) البرزالي. القاسم بن محمد بن يوسغ: المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ، ط١، ٢٠٠٦م ، ١٤٢٧هـ، ج٢،ق١، ص ١٤٨/ الذهبي شمي الدين أبوعبدالله محمد: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت – دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م- ج١٥، ص ٧٢٠.

(٥) العيني: عقد الجمان، ج٤، ص ١٤١.

(٦)ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص ٢٣٣/أبوالمحاسن. يوسف بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. مصر– دار الكتب المصرية١٣٦١هـ/١٩٤٢م، ج٨ ص ١٣٣.

والخروج عنه"[١]. فأقدموا على ذلك كرهاً لا طواعية[٢].

ويذكر أن الوزير المغربي سعى في هدم المعابد فأعلمه قاضي القضاة بأنه لا يُجّوز الشرع هدم معبد إلا إذا كان جديداً[٣]، وتم غلق عدة كنائس [٤]. ولما قصد النصارى فتح بعضهن اعترضهم العامة، وقاموا بضرب كل من صادفوه يخالف الأوامر السلطانية بزي مخالف[٥]، أو كان راكباً على دابة. وكان من نتيجة ذلك أن تظاهر كثيرون بالإسلام كرهاً لتغيير زيهم[٦]، وخوفاً من قطع أرزاقهم[٧]. وكان لظهور هذا المرسوم تأثيراً سيئاً على حالة الأمن العام في مصر [٨]. وأما أهل الإسكندرية فلما وصلهم هذا الأمر سارعوا إلى خراب كنيستين عندهم ذكروا أنهما مستجدتان في عهد الإسلام، وكان فيها دور كثيرة من دور النصارى اليهود أعلى من دور المسلمين فهدموها[٩]. وفعل مثلهم أهل دمنهور في البحيرة فهدموا فيها

(١) النويري. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأدب في فنون الأدب. القاهرة. دار الكتب والوثائق القومية، ط٣، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م. ، ج٣١، ص ٤١٨.
(٢) ابن حبيب : درة الأسلاك . ص ١٥٧.
(٣) اليونيني. قطب الدين موسى بن محمد:ذيل مرآة الزمان (٦٩٧- ٧٠١ هـ /١٢٩٧ م-١٣٠٢م). تحقيق: حمزة أحمد عباس. الإمارات العربية المتحدة ،أبو ظبي للثقافة والتراث، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، مج١، ص ٤٦٣.
(٤) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. تحقيق : زبيدة محمد عطا. القاهرة. عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠١م.، ج٤، ص ٣٧٩.
(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار، مج٤، ص ١٠١٨.
(٦) الداوداري: كنز الدرر، ج٩، ص ٥١.
(٧) الأنبا ايسيذورس : الخريدة النفيسة، ج٢، ص ٣٩٩.
(٨) على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية، ص ١٢٦.
(٩) اسطفان الدويهي:تاريخ الأزمنه. نشره:الآباتي بطرس فهد-لبنان-جونيه، ١٩٧٦م، ص٢٨٢/ حيدر أحمد الشهابي: الغررالحسان في تواريخ حوادث الأزمان وهو يتضمن تاريخ ألف ومايةواثنين وستين سنة من مولد النبي(ﷺ) إلى موت الأمير أحمد المعني. القاهرة، مطبعة السلام، ١٩٠٠م، ص ٤٧٧.

كنيستين، وقوص في الصعيد هدموا منها ستاً[١]، وبالفيوم كنيستان[٢]. ووصل هذا المرسوم إلى دمشق وغيرها بأمر من السلطان، فلما قُرأ على أهل دمشق أُلزموا به وتم منعهم من ركوب الخيل والبغال ومن الخدمه، وألبسوهم الغيار[٣]. وقد التزم أهل الذمة في جميع البلاد بما ورد في مرسوم السلطان باستثناء الكرك[٤]،إذ اعتذر نائب الكرك بكثرة أهل الذمة هناك[٥]. ولو نفذ ما بالمرسوم لتميز ولمع أهل الذمة وهم كثرة في الكرك عن المسلمين وهم قلة فيها.

على أنه بقيت كنائس الوجه القبلى والوجه البحري مفتوحة لم تغلق إلى أن دخلت ٧٠١هـ/ ١٣٠١م ومضى منها عدة أشهر وأغلقوا بعض الكنائس بالبلاد. أما أديرة الرهبان وصوامعهم فلم يُتعرض إليها بغلق أو أذى[٦]. وربما قصد من عدم غلقها عدم التضييق على أهل الذمة أكثر من ذلك، والاكتفاء بما هم فيه من غيظ وحنق جراء وجوب التزامهم بمرسوم السلطان والذي من جرائه أيضاً ضاقوا به ذرعاً، وصار ما حدث لهم بعد هذه الواقعة هو حديث العام والعامة، حتى قيل في ذلك شعراً، ومنه:

لقد لبسوا الكفار شاشات ذلة تزيدهم من لعنة الله تشويشا
فقلت لهم ما ألبسوكم عمائماً ولكنهم قد ألبسوهم براطيشا[٧].

(١) ابن قاضي شهبه. أحمد الأسدي الدمشقي: تاريخ ابن قاضي شهبه. تحقيق عدنان درويش – دمشق، ١٩٩٤، مج٢، ج١، ص ١٨٦.
(٢) ايسيذورس: الخريدة النفيسة، ج٢، ص ٤٠٠.
(٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان مج١، ص ٤٦٣/ الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٢٨٢.
(٤) الكرك: اسم لقلعة حصينة في أطراف الشام من نواحي البلقاء وهي على سن جبل عال تحيط بها الأودية "ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص ٣٦٢".
(٥) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، ج١، ص ١٨٦.
(٦) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ١١٧.
(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٤٠٩.

وإذا كان هذا المرسوم موضع تندر للشعراء، فإن من أصدر هذا المرسوم أصبح مجلاً في عين العلماء، فلقد حظى الملك الناصر بالثناء على فعله هذا حتى أثنوا على ما فعله داعين له بقولهم "سطرها الكاتبان في صحائف حسانته، وأثبتها المؤرخون في محاسن سيرته، ونظمها الشعراء في مدائح عقد مدائحه"(١).

وإذا وجدنا من يمدح السلطان الناصر على إصداره هذا المرسوم، فإننا نجد أيضاً من يصب جام غضبه على هذا الوزير المغربي، ويُعدوه هو السبب الرئيسي في هذا الانقلاب على أهل الذمة وإصدار هذا المنشور، وجدير بالذكر أن من غضب منه مسلمون ومسيحيون على السواء ،ومما يذكر في هذا" أنه على إثر هذا اللوم الذي وجهه أحد المغاربة تم تعزيز ما يعرف بالشروط العمرية التي تتعلق بأهل الذمة"(٢)، "وأنه صدر بتحريض من رجل لا يمت إلى المصريين بصلة وهو رجل لم تتشرب روح العمل والمساواة بين أهله مهما اختلفت أديانهم وتباينت نحلهم(٣)، ومن ثم أخذ هذا الوزير المغربي في شن حملة ضد أهل الذمة، وأتت هذه الحملة ثمارها في تلك الضغوط التي تعرض لها اليهود والمسيحيون"(٤).

ومن المنصفين من أرجع سبب هذا كله إلى سوء تصرف أهل الذمة إذا ما تمكنوا. ومما قيل في هذا أن أهل الذمة كانوا يمثلون بتوسعهم في استخدام سلطتهم ضد المسلمين أو محاباتهم لأهل ملتهم سبباً يثير شعور العامة من المسلمين، وكان يؤدي إلى تظلمهم للخلفاء والولاة، مما يؤدي إلى أن تقوم الدولة بتحجيم وجودهم في مواقع الإدارة والسلطة(٥). ولذلك نجد أن مرد معظم الثورات الشخصية وانفجار

(١) النويري: نهاية الأرب ج٣١، ص ٤٢٠.
(٢) مايرـ وليم: الملابس المملوكية. ترجمة صالح الشيتي – الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م، ص ١١٥.
(٣) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ١٢٣.
(٤) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٢٧٨.
(٥) كمال حبيب: الأقليات والسياسة، ص ٢٠٠.

العامة ضد الذميين يرجع إلى عدم تحفظ النصارى واليهود حين تكثر الثروة في أيديهم حين تواتيهم السلطة، حتى أن جمهوراً غفيراً من النصارى رأى نفسه أكبر من أن يلبس العمائم الصفراء[١]، حتى بلغت كراهية العامة لهم حداً قوياً وازداد شعورها ضدهم حنقاً، ووصل الأمر إلى الحد الذي جعل العامة يتصورون أن تلك المراسم السلطانية التي صدرت تبيح لهم النيل من أهل الذمة والتضبيق عليهم، وهذا يفسر امتداد أيدي العامة إلى كنائس اليهود والنصارى[٢]، ولعل من الإنصاف أن يُبرأ الوزير المغربي من تبعية ما حدث لأهل الذمه، فماذا كان خطأه ؟ ولماذا نلقى باللوم عليه؟ وإذا افترضنا أنه يتحمل جزء مما حدث لأهل الذمة، فماذا يكون تصرف أي منا إذا ما رأينا أحد من المسلمين يقبل قدم أحد من أهل الذمة أو حتى من أي ملة ولو كانت ملة الإسلام؟ فالمشهد سيصيبنا بالامتعاض حتى ولو كان الفاعل والمفعول به مسلمان، ومن سيقبل على نفسه مثل هذا الوضع ،ومن هنا إن تصرف الوزير المغربي تصرفاً طبيعياً وليس تصرفاً تحريضياً ضد أحد . ولذلك فما قاله المنصفون هو الراجح لأنه يطابق مقتضي الحال.

وعلى كل حال هذا المنشور لم يكن هو الأول من نوعه، كما لم يكن أسوأ المراسيم المماثلة التي كانت تصدر من وقت لآخر دون أن تلغى بتاتاً، بل استمر العمل بها إلى أن تزول تدريجياً وتصبح في عالم النسيان[٣]، وأصبح تأثير هذه القرارات يتضاءل شيئاً فشيئاً، وتناسى الناس القيود التي وردت بالمرسوم حتى كاد يهمل أو يبطل العمل به[٤]. أي أنه يتم العمل بتلك المراسيم حتى تهدأ الخواطر ثم

(١) ترتون: أهل الذمة ، ص ١٣٠.

(٢) حياة الحجي: أحوال العامة، ص ٢٨٨.

(٣) مايرز: الملابس المملوكية، ص ١١٨.

(٤) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ١٢٦.

يعود الأمر إلى ما كان عليه[١]. فالحكام لم يكونوا يتذكرون هذه القيود إلا تحت وطأة ظروف معينة، كما أن منشور الناصر محمد كانت بنوده أكثر شدة من تطبيقه، وما لبث التهاون والتغاضي عن مخالفات أهل الذمة لهذا المرسوم أن غلبا على تصرفات الحكام[٢]. وتعليقاً على ما ذكره "ماير" من أنه لم يحدث أن صدر قرار يلغي إلزام أهل الذمة بتلك المراسيم، فكيف تلغى المراسيم وهي من صنع واصدار الفاروق عمر، ومنهج حياة، وتنظيم علاقة أبديه، لأنه سيظل هناك الديانات المختلفة على مر العصو ر إلى أن يرث الله أرض ومن عليها، فأنى للناصر محمد أن يُلغى ما قرره خليفة المسلمين؟

ولعل العامل السياسي الذي حدا بالناصر إلى إنصاف المسيحيين بعد تلك الأزمة يرجع إلى مفاوضات مباشرة دخلها الناصر لتصب في مصلحة أهل الذمة[٣]، فبعد تطبيق هذا المنشور ببضعة أشهر نجد وصول سفارة من ملك الفرنج يسأل فيها الملك الناصر فتح بعض الكنائس المغلقة، وكان أن استجاب الناصر وتم فتح بعض الكنائس[٤].

-وفي ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م أبطل الأمير بيبرس [٥] عيد الشهيد بمصر. وهو عيد يجتمع فيه النصارى حول تابوت يزعمون أن فيه إصبع من أصابع بعض

(١) فوزي أمين :المجتمع المصري، ص ٢٣٦.
(٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٢٧٧، ص ٢٨٨.
(٣) على إبراهيم حسين: تاريخ المماليك البحرية، ص ١٢٧.
(٤) المقريزي : السلوك، ج١ قسم ٣ ص ٩١٢/ كمال حبيب: الأقليات والسياسة، ص ١٩٨.
(٥) الأمير بيبرس: بيبرس البندقداري، كان شهماً شجاعاً ،اتفق مع جماعة من الأمراء على قتل السلطان المملوك قطز حتى قتلوه ،وحينما قُتل حار الأمراء بينهم فيمن يولون الملك، فاتفقت كلمتهم على أن يبايعوا بيبرس البندقداري ولقبوه الملك الظاهر، فحكم عدل وقطع وولي وعزل "ابن اكثير، عماد الدين أبوالفدا إسماعيل: البداية والنهاية. القاهرة – دار الغد العربي. ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م مج٧، ص ٢١٠.

شهدائهم. إلا أن سبب إبطاله راجعاً إلى ما يحدث فيه من مخالفات، إذ يذكر أن بعض النصارى باع في هذا العيد بإثنى عشر ألف درهم خمراً من كثرة الناس التي تتوجه إليه للفرجه، هذا غير ما يحدث فيه من فتن إلى حد مقتل البعض، فأمر الأمير بيبرس بإبطاله، إلا أن هذا الأمر شق على النصارى وحاولوا إلغاءه عن طريق لجوئهم إلى كاتب بيبرس بعد أن وعدوه ببذل الأموال، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل(١). وهناك من يرى في منع الاحتفال بهذا العيد قصر نظر من الحكام الذين لم يراعوا عوائد البلاد من هذا العيد، ورأوا في الحكام أنهم مستبدون غير عالمين بطرق السياسة(٢). إلا أن هذا الكلام مردود عليه بأن (المبدأ) في الإسلام أمر مهم لا يمكن الاستغناء عنه، فمنع الفساد ودرءه أهم من جلب المصالح خاصة إذا كانت أموالاً ،وقد سبق وذكر ما كان يحدث من مخالفات في هذا العيد.

كما يرد على هذا محمد عبد العزيز مرزوق بقوله:" أنه حينما صدر الأمر بإبطال الاحتفال بهذا العيد فإن هذا الأمر لم يكن موجه ضدهم، بل بسبب ما كان يجري فيه من اللهو وما يرتكب فيه من الآثام، حتى أنه لما زلزلت الأرض فقد ربطوا بين غضب الطبيعة وبين ما يرتكبه الناس من مفاسد في الأعياد"(٣)، فلذلك تم إلغاء الاحتفال به وعملوا على الحد من مظاهر الاحتفالات بوجه عام وليس أعياد أهل الذمة بوجه خاص.

-وفي ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م بعث ملك برشلونه (٤) هداياً إلى السلطان الناصر والعديد من الأمراء، وسأل الناصر فتح بعض الكنائس، فوافق الناصر محمد على

(١)المقريزي : السلوك ج١، قسم ٣، ص ٩٤١، ص ٩٤٢/ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٨، ص ٢٠٢، ص ٢٠٣.

(٢) يعقوب نخلة روفيله: تاريخ الأمة القبطية، ص ٢١٧.

(٣) الناصر محمد – القاهرة. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٤م، ص ١٦٠.

(٤) برشلونه: بلدة بالأندلس من أقاليم لبلة." ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج١، ص ٥٦٦".

ذلك[١]. فقد كان ملك برشلونه حريص على إقامة علاقات قوية مع سلاطين المماليك في مصر من أجل رعاية شئون مسيحي الشرق، وفتح أسواق جديدة لهم في مصر على طريق العلاقات التجارية[٢]. وهذا يظهر أن الناصر محمد أبداً لم يكن متشدداً، بل يتمتع بالرفق، وإن ظهر منه ما يخالف الرفق تجاه أهل الذمة فإن هذا مرجعه إلى عدم التزامهم. ويعطينا صورة عن أخلاقه التي ساعدت على تقريب وجهة النظر بين برشلونة ومصر فيما يختص بمعاملة المصريين المسلمين للمسحيين، فلقد كان الملك الناصر مستنيراً وسياسياً محنكاً يميل إلى المسالمة التي لا تنقص من هيمنته أو تخفض مكانته. وملك هذه سجاياه لا يرفض توثيق العلاقات الودية بينه وبين الممالك الشرقية والغربية[٣].

-وفي ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م وصل وفد من القسطنيطينية[٤] إلى مصر يسألون الناصر أن تعاد إليهم كنيسة بالقدس الشريف كانت قد أخذت منهم ليبنى فيها مسجد، فاستجاب الناصر وأعيدت الكنيسة إليهم[٥].

-على أنه في نفس العام قام السلطان الناصر بإصدار قوانين صارمة ضد اليهود والمسيحيين وذلك على إثر وفد جاء من أوروبا يطلب من الناصر فتح بعض الكنائس، وإطلاق سراح أسير مسيحي، فأجاب السلطان طلبهم. وحينما همّ الوفد

(١) المقريزي: تاريخ الأقباط، ص١٢٩.

(٢) كمال حبيب: الأقليات والسياسة، ص ١٩٨.

(٣) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ١٢٧.

(٤) القسطنطينية: مدينة وقلعة كبيرة، وهي من حدود افريقية مما يلي المغرب، ذات حصانة ومنعة، تقع على ثلاثة أنهار عظام وتجري فيها السفن "ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص ٩٨".

(٥) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة ج٤، ص ٤١٤. وفي حين أن هذه الحادثة ذكرها بيبرس نفسه في حوادث٧١٠هـ/ م من كتابه "التحفة المملوكية، ص ٢٢٠، ص ٢٢١".

بالعود إلى أوربا رأى السلطان أنه لابد أن يأخذ فدية هذا الأسير، فأرسل الرسل ليسترجعه، لكن رفض الوفد إرجاعه، ليس هذا فحسب، بل أخذوا معهم الرسل الذين بعث بهم الناصر، مما أثار حفيظته، فأذن بمهاجمة المسيحيين، وأبعدوا من كل وظائف الحكومة وأعمالها، وشدد في التزامهم بالركوب والزي، وهدم ما شيد من صوامع وبيع، فاشتد عليهم الأمر ولم يجدوا مخرجاً إلا الهجرة أو الدخول في الإسلام(١). ثم أرسل الناصر رسولاً إلى بغداد ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م ومعه مرسوم بإلزام أهل الذمة بالعلائم. وحاول أهل الذمة ببغداد بذل الأموال للرسول حتى يعفو من ذلك، إلا أنه لم يرض بذلك(٢). ولكن هذا المرسوم كغيره لم يلبث أن صار في زوايا الإهمال تدريجياً(٣).

-وفي ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م جرت محاولة بأن يسمح للذميين بلبس العمائم البيضاء إذا التزموا لبيت المال بسبعمائة ألف دينار غير الجزية التي يدفعونها، لكن لم يقبل مقترحهم، إذ عارضهم فيه القاضي ابن تيمية(٤)، قائلاً للسلطان:" حاشاك أن تكون ممن ينصر أهل الذمة" فرفض السلطان(٥). ولكن يبقى السؤال، لماذا يحاول أهل الذمة أن يتشبهوا بالمسلمين في زيهم ويمقتون إلزامهم بلبس الأزرق ب؟ فهل تمييزهم باللون الأزرق يؤدي إلى معرفة كونهم ذميين وبالتالي يمكن أن يؤثر هذا على تجارتهم وتعاملاتهم واقتصادهم بالسلب. كما يجر عليهم الازدراء وعدم

(١) المقريزي: السلوك ج١، ص ٩٥٠.

(٢) البرزالي: المقتفى ج٢، ص ٤٨/ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ١١٣٠، ص ١١٣١.

(٣) وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر. ترجمة: محمد عابدين/ سليم حسن. القاهرة، ط١، ص ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص ٨١، ص ٨٢.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٠٠/ ترتون: أهل الذمة، ص ١٣٠، ص ١٣١/ ماير: الملابس المملوكية، ص ١١٨.

(٥) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٢٧٨.

الاحترام من مخالفيهم في الملة؟ ربما هذا، خاصة بعدما تم رصده من مواقف تثبت لهم تحولهم إلى الإسلام في سبيل الاحتفاظ بمناصبهم.

-وبالرغم من ذلك تتوالى الأحداث التي تنبئ باستمرار التوتر في العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة ففي ٧١٠هـ/ ١٣١٠م تم ضرب عنق نصراني، حيث أنه انتقص من قدر النبي (ﷺ) وتعرض بالنقض للقرآن الكريم واستهان بالعلماء، وشهد عليه الشهود بكفره وزندقته وتفادياً لقتله فقد أخذ يتلفظ بالشهادة ليصير مسلماً ويصيح "يا مسلمين أنا أشهد أن لا إله إلا الله، أنا كافر وقد أسلمت"، إلا أن هذا كله لم يقبل منه، وأمر القاضي بضرب رقبته[١]. وعلى هذا فما كان قتله إلا جزاء لما فعله، وما كان المسلمون بادئون ولكنهم رادون بحزم على مثيري الفتن.

-وفي ٧١٤هـ/ ١٣١٤م أمر السلطان بقتل رجل مسلم جزاءً لما فعله ببعض اليهود والنصارى، إذ أن هذا الرجل ركب فرسه وبيده سيفه وشق طريقه في القاهرة، وكلما قابل في طريقه يهودياً أو نصرانياً ضربه، فجرح البعض، وقطع أيدي البعض الآخر، حتى تم القبض عليه وقتل جزاء فعله[٢]. وفي نفس العام استعار النصارى بعض قناديل الجامع لينيروا بها الكنيسة في اجتماع لهم، وحينئذ هجم عليهم أحد الشيوخ أثناء اجتماعهم في الكنيسة، وأطفأ الشموع وأنزل القناديل وتتبع بالإساءة من أذن للنصارى باستعارة القناديل[٣]، فلما علم السلطان بفعله أحضره ليسأله عن فعله هذا، فأشار إلى السلطان بكلام فيه غلظة وكان مما قاله: "أفضل المعروف كلمة حق عند سلطان جائر وأنت وليت القبط وحكمتهم في دولتك وفي المسلمين .. فقال السلطان: ويلك أنا جائر؟ فقال: نعم". وهمّ السلطان بمعاقبته

(١) زدرشتين: تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٠٤، ص ١٠٥.

(٢) مفضل بن أبي الفضايل: تاريخ سلاطين المماليك، ج٣، ص ٢٤٢، ص ٢٤٣.

(٣) المقريزي : السلوك ج٢، ص ١٣٥/ موير: تاريخ دولة المماليك، ص ٩٣.

وأمر بقطع لسانه، إلا أن الأمراء لا زالوا بالسلطان حتى عفى عنه واكتفى بإصدار أمر بخروجه من مصر(١). ومثل هذه الحوادث الفردية لا يمكن أن نعتبرها برهاناً على حدة موقف المسلمين ضد أهل الذمة، حيث يصعب التعميم نتيجة عدم توافر الأدلة المثبتة لذلك(٢). فلم تكن حوادث مدبرة أو يجتمع فيها حشد كبير. كما يتضح حسن تصرف الناصر الذي ما إن يرى تصرفاً خاطئاً حدث من أحد رعيته بادر بمعاقبته غير عابئ إلى أي دين ينتمي محدث الخطأ.

-وفي ٧١٥هـ/١٣١٥م ذكر القريزي أنه تم إغلاق كنائس اليهود والنصارى بأجمعها في مصر والقاهرة في شوال، ثم فتحت في ذي الحجة دون أن يذكر لنا سبب لذلك(٣). ثم أعقب ذلك في ٧١٨هـ/ ١٣١٨م أن أمر السلطان بهدم كنيسة للنصارى بالقاهرة، وذلك لأن النصارى كانوا قد استأذنوا السلطان بترميم جزء منها، فوافق على ذلك، وحدد لهم ما يرممون، ولكنهم خالفوا وعمروها جميعها(٤)، فأصبحت كأحسن المباني، فشق ذلك على جيران الكنيسة من المسلمين وشكوا إلى السلطان في عدة عرائض، فحكم بخراب ماجُدد فيها من البناء فهدم. إلا أن جماعة من المسلمين بنوا الجانب الذي هُدم محراباً، وأذنوا فيه للصلوات وصلوا، فشكى النصارى الأمر إلى السلطان الذي أمر بهدم المحراب، وانتهى الأمر بأن أهمل هذا الموضع المختلف فيه(٥)، وصار خراباً لا كنيسة ولا محراباً.

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ١٣٦.
(٢) حياة الحجي: أحوال العامة، ص ٢٨٩.
(٣) السلوك: ج٢، ص ١٥٧.
(٤) النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص ٢٨٧.
(٥) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ١٨٢، ص ١٨٣/ ترتون: أهل الذمة، ص ٦٢.

أحداث ٧٢١هـ/١٣٢١م

وتعد كل تلك الاضطرابات والتوترات السابقة بين المسلمين وأهل الذمة مقدمة أو أحد الأسباب التي أدت إلى اندلاع الفتنة بينهما في ٧٢١هـ/ ١٣٢١م وهي محور البحث وموضوعه، تلك الفتنة التي تنقسم إلى شقين: شق اتُهم به المسلمون ،وشق اتُهم به المسيحيون. ومفاد تلك الفتنة أنه في ٧٢١هـ/ ١٣٢١م أمر السلطان الناصر ببناء بركة له، وصادف أنه بجانب موضع بناء البركة – قرب بحر النيل – كنيسة، فأراد هدمها[١]، فصدر المرسوم بخراب تلك الكنيسة[٢]، لأن الحفر أحاط بها وصارت في الوسط بحيث تمنع من اتساع البركة، وهنا صدر أمر السلطان إلى الأمراء بأن يبالغ في الحفر حولها حتى تتعلق ويتم هدمها بدخول الليل، ويتم إشاعة أنها سقطت على غفلة، فلما كان يوم الجمعة ووقت صلاتها اجتمع طائفة من الناس وقاموا بهدم الكنيسة حتى صارت تراباً، إلا أن الأمر لم يقف عند حد هذه الكنيسة، بل امتد الأمر إلى العديد من الكنائس التي انتهبت في القاهرة، واستولوا على ما فيها من أموال وأمتعة، حتى قيل أنهم سبوا منها جماعة من نساء الكنيسة ورهبانها[٣]، كما أنهم أحرقوا الأموات المدفونين في الكنائس[٤]. وتزامناً مع ما يجري في القاهرة، فقد شهدت الإسكندرية هجوماً مماثلاً على كنائسها، فهدمت بها عدة كنائس حتى صارت أكواماً. وبطريقة ممنهجة سرى هدم الكنائس في العديد من المحافظات، إذ وقع الهدد أيضاً في كنائس البحيرة وقوص وتواترت الأخبار من الوجهين القبلي البحري بهدم الكنائس وقت صلاة الجمعه، وتفاجأ الناس عقب خروجهم من صلاة الجماعة بما يحدث، حيث رأوا أمامهم دخان

(١) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٣٨٧.
(٢) الدواداري: كنز الدرر، ج٩، ص ٣٠٦.
(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ١٠٦٧.
(٤) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٣٨٧.

الحرائق قد ارتفع إلى السماء ووجدوا العامة في هرج ومعهم الأخشاب والصلبان والثياب التي انتهبوها مرددين "السلطان نادى بخراب الكنائس". إلا أن السلطان برئ من هذا الأمر. وعلى الفور وحينما وصل إلى السلطان ما يحدث من خراب الكنائس تملكه الغضب، وأصدر أوامره بالقبض على العامة المعتدين، وحينما حاول الأمراء تعقبهم فروا هاربين، اللهم إلا من كان الخبر ذاهباً بعقله لم يستطع الهرب فتم القبض عليه وحبسه(١). واستفتى القضاة فيما يفعل مع هؤلاء، فأفتوا بتعزيرهم، فضُرب البعض، وشُج آخرين. ومن استوجب في حقهم القتل فإنهم علقوا في أماكن عامة تخويفاً للعوام(٢).

وجديراً بالذكر في هذا الحادث أنه عقب انقضاء شعائر صلاة الجمعة وقبل خروج المصلين صاح فيهم أحد الرجال فاقد الأهلية – ذاهب عقله – قائلاً: "اهدموا الكنيسة التي في القلعة" مما أثار تعجب المصلين، وعندما علموا يقيناً بخبر هدم الكنائس طلبوا هذا الرجل فلم يجدوه(٣).

وما ورد آنفاً من هدم العامة للكنائس حدث مهم يثير العديد من التساؤلات ويستوجب التحليل من عدة أوجه:

أولاً: رواية المقريزي بشأن مكان البركة وأن السلطان أمر أن يبالغ في الحفر حولها حتى تتعلق وتهدم إذا دخل الليل، ثم يُشاع أنها سقطت غفلة. هذه الرواية تدعونا إلى التساؤل: ترى هل يمكن أن نعتمد ما قاله المقريزي كدليل يؤكد تعاون الأمراء المماليك مع العامة ضد أهل الذمة؟ وما الذي يجعل الطبقتين المتفاوتتين مادياً يداً واحدة ضد النصارى واليهود؟(٤) كما أن هناك من يرى أن

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، مج٤، ص ١٠٦٨.
(٢) النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص ١٧.
(٣) المقريزي: السلوك ، ج٢، قسم١، ص ٢١٨.
(٤) حياة الحجي: أحوال العامة، ص ٢٩٠.

الناصر برئ من كل ما آتاه العامة من نهب وتخريب، وأنه لو علم بأمر تلك المؤامرات التي دُبرت ضد النصارى لاتخذ كل احتياط يكفل منعها[1]. ورواية المقريزي هنا لم تحدث، بدليل كلامه بعد ذلك فيما أورده عن الحادثة والذي يشير إلى أن الكنيسة لم تهدم بليل، وإنما هدمت ظهراً في وضح النهار، فهذا يشير إلى كذب وافتراء على السلطان بشأن تدبير هدمها سراً.

ثانياً: كل من المسلمين وأهل الذمة يرى الحادثة من وجهة نظره بشكل مغاير للطرف الآخر، حيث رأى يعقوب نخله أن أمر السلطان بالحفر حول الكنيسة أملاً أن تسقط من تلقاء نفسها أمراً عده المسلمون تساهلاً من قبل السلطان وميلاً للنصارى. كما أن تصميم النصارى على عدم التنازل عن الكنيسة للسلطان وقاحة منهم – هذا على فرض أنهم طُلب منهم التنازل – فلما كثرت العمارات وكانت تحتاج إلى أخشاب ورخام وهذه متوفرة بكنائس النصارى، وإذا هدمت واحدة منها جددت أو قامت غيرها أعظم وأحسن، تواطأ المسلمون وبعض الأمراء على هدم الكنائس واستخدام أدواتها في العمارات، وانتقاماً من النصارى على تعنتهم وعدم تفكرهم في إهدائها للسلطان حال كونهم لا يجهلون احتياجهم إليها[2].

ثالثا: بدلاً من أن يدبر السلطان هدمها سراً كان بإمكانه أن يصرح بأنه سيقدم على هذا وأنه سيقوم بتعويض أهل الذمة عنها، وحينئذ ما كان لأهل الذمة أن يعترضوا.

رابعاً: مع افتراض أن السلطان أسرّ إلى الأمراء بهدم الكنيسة لأنها تعترض البركة، فليس هذا معناه اضطهاد المسيحيين، والأمر كله لا يعدو إلا أن الكنيسة كانت تقف عائقاً أمام بناء البركة، وأن الأمر يختص بهذه الكنيسة فقط، وإلا لما غضب السلطان بعد علمه بواقعة هدم الكنائس هذه.

(١) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ١٣٢.
(٢) تاريخ الأمة القبطية، ص ٢٢٤.

خامساً: إذا اعتبرنا صحة الافتراض الثالث فهذا يفسر لنا تتابع هدم الكنائس والذي يمكن أن نعزوه إلى الفهم الخاطئ من العامة لأمر السلطان بهدم تلك الكنيسة، فحسبوا أن هذا إيذاناً وإذناً منه بهدم الكنائس ما دام أذن في واحدة، ولم يعوا أن أمره هذا يختص بتلك الكنيسة التي تعترض بناء البركة فقط، فخيل إليهم أن أمره هذا تصريح بإهدار بناء جميع الكنائس.

سادساً: يمكن أن يكون لـ (نظرية المؤامرة) في هذه الحادثة نصيب . فلا يستبعد أن يكون أحد الأمراء المشتغلين ببناء البركة أو المستفيدين من وقوع الفتن في البلاد قد حسن للسلطان أمر هدمها بدعوى اعتراضها البركة، وهو ينوي في ذلك جر السلطان إلى مالا يحمد عقباه، ووقوع صدام بينه وبين أهل الذمة بإشعال الفتنة خاصة، وأن السلطان قد سبق وأصدر مرسوم ٧٠٠هـ والذي شدد فيه على أهل الذمة بعدم مخالفتهم، مما فتح باباً للقول بأنه من الممكن أن تكون مؤامرة يُورط فيها السلطان.

سابعاً: ومما يعضد الرأي الخامس بوجود مؤامرة دون علم السلطان ما كان من عامل المفاجأة، إذ أن هذا الأمر لو تم من عامة الناس لكان بالبلاد حالة من قبلها تنذر بهذا الهجوم الكاسح على الكنائس ولوجدنا الدعوة إلى هذا الفعل تصدح في جنبات البلاد، ولكن عامل المفاجأة ينبئ بوجود مخطط دُبر له سراً، حتى أن الناس حين خروجها من المسجد تفاجأت بما شاهدته من دخان كثيف وتراب كما ذكر.

ثامناً: بقى أن نتسأل، من فعلها؟ فإذا كان عامة الناس مجتمعة في المساجد لأداء صلاة الجمعة، وحينما فرغوا من الصلاة فوجئوا بما رأوه من عمليات الهدم، إذن فمن قام بهذا؟ والجواب أنه لا يمكن أن نعتبرهم من عوام الناس، ولا يمكن أن نعتبر ما حدث فتنة بين مسلمين ومسيحيين، بدليل انشغال الناس في صلاة الجمعة

وتفاجئها بالحادث. ولكن من قام بهذا مجموعة من الغوغاء على حد تعبير ترتون الذي ذكر "فتجمع حشد كثيف من غوغاء العامة بغير مرسوم من السلطان" فهذه شهادة ذمي تبرئ السلطان من هذا الفعل وتنسبه إلى الغوغاء من العامة، والذي ذكر بأنهم استغلوا تعاظم النصارى على المسلمين، فامتدت أيديهم بالتخريب إلى الكنائس"[١].

هذا ما كان من الشق الأول من فتنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م والتي وجُهت أصابع الاتهام فيها إلى المسلمين. ونصل إلى الشق الثاني المترتب على الأول، إذ على ما يبدو أن أهل الذمة لم يستسلموا على الدوام لتلك الكوارث التي تحل بهم وبدارهم، بل كثيراً ما لجأوا إلى بعض الأعمال الاستفزازية والانتقامية[٢]. ورداً على هدم الكنائس فإنهم اتهموا بإقدامهم على (حريق القاهرة) إذ وقع حريق عظيم بالقاهرة[٣]، وكان الحريق متتابعاً[٤]، آتى على الأماكن المرتفعة وبعض المساجد[٥]، ووصل إلى الدور وبقى فترة من الوقت[٦].

وبيان ذلك أنه سرى حريق كبير في القاهرة، بدء بدار الوكالة والتي احترق فيها متاجر الناس من الزيت والعسل وجميع الأصناف، وظن الناس أن ذلك عن غير قصد، وأن هذا الحريق على ما جرت به العادة في هذا المكان على سبيل الخطأ وعدم الاحتراز فيه، وكان هذا في يوم الجمعة الرابع عشر من جمادى الأولى، فلما كان صباح اليوم التالي احترقت عدة من دور المسلمين بلغت ثلاثون

(١) أهل الذمة، ص ٦٣، ص ٦٥.
(٢) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٤٥.
(٣) ابن حبيب: درة الأسلاك، ج٢، ص ٢٢٤ / اليافعي اليمني: مرآة الجنان، ج٤، ص ٢٦٠.
(٤) الذهبي الحافظ: ذيول العبر في خبر من غبر ، ج٤، ص ٦٠.
(٥) البرزالي: المقتفى، ج٢، ص ٤٦٩.
(٦) زدرشتين: عصر سلاطين المماليك، ص ١٧١.

داراً بما يقارب المائة مسكن[١]، واقترب الحريق من دار الأمير كريم الدين[٢]، فخيف عليها من الاحتراق لكونها بها المتحصلات السلطانية من أموال وغيرها[٣]، فبعث السلطان الناصر مجموعة من الأمراء لإطفائه خوفاً على ما في الدار من المتحصلات السلطانية[٤]، فحضر الأمراء والسقايين واجتهدوا في أمر إطفائها إلى أن طفيت بعد أن هدم بسببها الكثير من الدور والأموال والأقمشة[٥].

وهنا اختلفت الأقاويل في سبب النار. فمنهم من قال إنها من السماء[٦]. وهناك من قال بأن هذه النار من فعل الملوك والأعداء. وآخرون ذهبوا إلى أنها من عمل العاطلين من الجند والحرافيش بقصد النهب، وذهب كثيرون إلى أنها من فعل النصارى[٧].

وقد استمرت النيران نهار الأحد، ولما كان يوم الأثنين أصبحت النيران تتلف ما تمر به وخرجت ريح عاصفة عملت على نشر النار، فتجمع الناس في الجوامع وتضرعوا إلى الله بالدعاء، وتجمع سائر الأمراء وجمعوا أهل القاهرة ونقلوا الماء من المدارس والحمامات والآبار في محاولة منهم لإطفاء تلك النار الموقدة، كما قاموا بهدم الدور من أسفلها لأن النار كانت تسري فيها من أعلاها[٨]،

(١) النويري: نهاية الأرب ج، ٣٣، ص ١٧، ص ١٨.
(٢) كريم الدين: هو كريم الدين عبدالكريم ابن المعلم هبة الله بن السديد، وكيل السلطان وعظيم دولته، أحيط بداره وصودر فوجد له شيء كثير جداً، ولازال في المصادرة إلى أن أفرج عنه، كان من كتبة النصارى ثم أسلم، وانعم عليه السلطان الناصر. أما نهايته فذكر أنه شنق نفسه أو أن الملك الناصر أمر بقتله سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م " أبو المحاسن النجوم، ج٩، ص ٧٥".
(٣) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢،ص ٣٨٧، ص ٣٨٨.
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٦٤.
(٥) النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص ١٨.
(٦) الدواداري: كنز الدرر، ج٩، ص ٣٠٦.
(٧) النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص ١٨.
(٨) المقريزي: السلوك، ج٢، قسم ١، ص ٢٢١.

فلما كانت ليلة الأربعاء تجددت النار مرة أخرى وهبت الرياح، فعمل الأمراء على إطفائها، إلا أنهم ما كادوا يفرغون من إخمادها حتى شبت نار أخرى في اتجاه آخر، فما زالوا حتى أطفئت، إلا أنهم في هذه المرة قد وجدوا أداة اشتعال الحريق، إذ عثروا على أسطح الدور على نفط عمل منه فتيلة كبيرة، فنودي في الناس بأن يعمل بجانب كل دار وحانوت زير يملأ بالماء(١). ولما كان ليلة الخميس وقع حريق مرة أخرى، فأصبح لا تخلو ساعة من وقوع الحريق بموضع من القاهرة ومصر، وانتشر بين الناس أن هذا الحريق من جهة النصارى غضباً لهدم كنائسهم ونهبها(٢). كما أن النيران سرت في منابر الجوامع وحيطان المساجد والمدارس، ووجدوا الكثير من النفط الذي لُف في خرق مبللة بالزيت(٣)، فتعمل قوارير ينقدح ما فيها ليحرق ما يُلقى عليه(٤).

وقد وجد ثلاثة من النصارى رموا ناراً في بعض الدور . وهنا لم يخالط الناس شك في كون هذا الحريق من فعلهم ، فتم الإمساك بهم وضربوا حتى أقروا(٥). إلا أنه بعد ذلك قيل أنهم من الفلاحين وأنهم لم يفعلوا ذلك، وإنما أقروا على أنفسهم بما لم يفعلوه نظراً لما حدث لهم من شدة الضرب فأطلقوا(٦).

وكان للنصارى كبير لهم يعتنى بهم، فكان مما قاله للسلطان "أن النصارى أضعف أبداناً وقلوباً من الإقدام على هذا الأمر". فصدقه السلطان وأنكر أن يكون

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٦٦، ص ٦٧/ الأنبا ايسيذورس: الخريدة النفيسة، ج٢، ص ٤٠.

(٢) يوسف الدبس: تاريخ سورية الديني والدنيوي. يتضمن تاريخ سورية من أواخر القرن الحادي عشر إلى أوائل القرن السادس عشر. دار نظير عبود. بيروت، ١٩٠٢م، ج٦، ص ٣٥٢.

(٣) المقريزي: المواعظ، مج٤، ص ١٠٧١.

(٤) الذهبي : ذيول العبر، ج٤، ص ٦٠.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص ١٢١.

(٦) النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص ١٩/ وليم موير : تاريخ دولة المماليك، ص ٩٤.

هذا من فعل النصارى[١]. ورفض الناصر أن يصدق الوشاة بأن كل حريق أو تدمير أو إضرار يقع في البلاد يكون ناشئاً من المؤامرات التي تثيرها النصارى[٢]. ثم أعقب ذلك الإمساك بأربعة من النصارى الروم الملكانيين فاعترفوا بأنهم هم من أحرقوا وذلك بدون ضرب ولا تهديد، وأنهم فعلوا ذلك جزاء هدم كنائسهم. كما أنهم اعترفوا على رهبان دير البغل[٣] بضلوعهم في هذا الحريق، وأبلغوا السلطان أن هؤلاء الرهبان من الملكانيين وليسوا من اليعاقبة الذين هم نصارى البلاد، وإنما فعلوا هذا لجهلهم. وحسن الموكل إليه أمر الاعتناء بالنصارى إلى السلطان أن يأمر بقتلهم على وجه السرعة. ويبدو أنه قصد من وراء التعجيل بإعدامهم خشية أن يُقروا على غيرهم، فأمر السلطان بهم فحرقوا[٤]. ثم تم القبض على راهبين من دير البغل، وأقرا بأنهما أحرقا الأماكن لما فُعِل بكنائسهم، فاستدعى السلطان كريم الدين وعرفه بخبر من قبض عليه من النصارى، فقال للسلطان :"النصارى لهم بطرك" فأحضره كريم الدين وبالغ في إكرامه وإجلاله، وأعلمه بما فعل الرهبان، فكان رده "أن هؤلاء سفهاء قد فعلوا كما فعل سفهاؤكم والحكم للسلطان"[٥]. فسر كريم الدين بهذا الجواب الذي أزال الشك– من وجهة نظره – من ناحية النصارى وتواطئهم على إيقاع الأذى بالمسلمين . وأمر بإعداد بغلة يركبها البطرك الذي ظل لمدة ساعة انصرف بعدها راكباً على بغلته[٦]. وهنا أدت طريقة تعامل الدولة المملوكية

(١) النويري : نهاية الأرب، ج٣٣، ١٩.
(٢) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ١٣٢.
(٣) دير البغل: يقع دير البغل بجبل طره، وسمي بذلك لأنه كان في هذا الدير بغل عوده الرهبان على أن يتردد على بحر النيل وحده ليستقي مياهاً للدير، وقد نسب إلى رهبان هذا الدير حرق مساجد القاهرة. الأمر الذي دعا المسلمين إلى تشتيت رهبان الدير وتدميره ."ايسيذورس :الجريدة النفيسة، ج٢، ص٤٠٥".
(٤) النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص ٢٠.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٦٨.
(٦) يعقوب نخله : تاريخ الأمة القبطية، ص ٢٢٩.

الإسلامية مع البطرك بطريقة كريمة إلى حدوث أزمة خطيرة مع عامة المسلمين[١]، فقد أثارت تلك المعاملة حفيظتهم فصاحوا بكريم الدين: "ما يحل لك تحامي للنصارى وقد أخربوا بيوت المسلمين"، وكان أن عرف السلطان بأمر البطرك، فأصدر أمره بعقوبة النصارى، فقبض عليهم من دير البغل، وأحرق منهم من أحرق، فاشتد بأس العامة على النصارى وأهانوهم[٢]. وما أن ركب السلطان إلى الميدان حتى أحضر له نصرانيين قبض عليهما فأحرقا، وهناك رأى العامة كريم الدين فصاحوا به "كم تحامي للنصارى، وسبوه ورموه بالحجارة، فشق ذلك على السلطان، وأخذ رأي أمرائه في معاقبة العامة لتطاولهم على أمراء السلطان، فأشار عليه البعض أن الحل هو عزل النصارى، لأن الناس قد بغضتهم، إلا أن ذلك لم يرضه. وانتهى الأمر إلى أن يخرج أربعة أمراء كل يسير في اتجاه ويضعوا سيوفهم في العامة المتهكمين على الأمراء، ويُقبض على من وجُد ويُحمل إلى القلعة لضرب عنقه، فشفع فيهم كريم الدين عند السلطان الذي قبل الشفاعة، ورضي بالقبض عليهم دون قتلهم[٣].

ثم كان أن تجدد الحريق بجوار القلعة وبجوار جامع أحمد بن طولون[٤]، وركب السلطان إلى الميدان فوجد عامة الناس قد لبسوا الأزرق والأصفر ورسموا صلباناً وصاحوا "لا دين إلا دين الإسلام ...يا مالك ياناصر... انصرنا على أهل الكفر ولا تنصر النصارى"، وخاف السلطان الفتنة فتوجه إليهم قائلاً: "من وجد نصرانياً فدمه وماله حلال"[٥]، وتم إلقاء القبض على ثلاثة من النصارى قد ارتدوا

(١) كمال حبيب: الأقليات والسياسة، ص ١٩٢.
(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، مج٤، ص ١٠٧٢.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٦٩.
(٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ٢، ص ٣٠١.
(٥) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص ٢٢٦.

العمائم البيض وتخفوا في زي المسلمين ودخلوا إلى الجامع وقصدوا إحراقه، وجيء بهم إلى متولي القاهرة الأمير علم الدين سنجر الخازن[١]، فأنكر على نائبه إحضارهم قائلاً له من يشهد على هؤلاء أنهم أحرقوا؟ وشتمه. وإنما فعل علم الدين ذلك رعاية لخاطر المعتني بأمر النصارى، وهنا غضب النائب وتوجه إلى بيوت هؤلاء النصارى فوجد بها آلات الحريق وفتايل عملت بالزيت والكبريت، وعرف السلطان بخبرهم فأمر بإحضارهم، فاعترف اثنان وأنكر الثالث، فما زالوا به حتى اعترف بالتهديد والتخويف حتى تيقن السلطان أن هذا الحريق من فعل النصارى، وتم القبض على جماعة منهم[٢]. وهنا أصدر السلطان مرسوم بلبس النصارى العمائم الزرق[٣]، وألا يركبوا فرساً ولا بغلاً، وأن يركبوا الحمير عرضاً، ولا يدخلوا الحمام إلا بجرس في أعناقهم[٤]، ولا يتزيوا بزي المسلمين ولا نساءهم وأولادهم، وأمر الأمراء بإخراج النصارى من الدواوين[٥]، وأغلقت الكنائس والأديرة، وقرأ كريم الدين هذا المرسوم على نصارى الإسكندرية[٦].

ومما يذكر أنه بعد إصدار هذا المرسوم فقد تجرأت العامة على النصارى بحيث إذا وجدوهم ضربوهم وجردوهم من ثيابهم، فلم يجرؤ نصراني أن يخرج من بيته. وكان إذا عرض له عارض يتزيا بزي اليهود ويؤجر عمامة صفراء من يهودي ليخرج في حاجته[٧]. ومع اشتداد العامة على النصارى فقد أمر السلطان

(١) علم الدين سنجر الخازن: كان من المماليك المنصورية، وما زال يترقى حتى صار والى القاهرة." النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، حاشية، ص٢٣".
(٢) النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص ٢٣، ص ٢٤.
(٣) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٣٨٨/ البرزالي: المقتفى ج٢، ص ٤٦٩.
(٤) ابن حبيب: درة الأسلاك، ج٢، ص ٢٢٤.
(٥) الأنبا ايسيذورس: الخريدة النفسية، ج٢، ص ٤٠٢.
(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٧١.
(٧) المقريزي: المواعظ والاعتبار مج٤، ص ١٠٧٥/ ترتون: أهل الذمة ، ص٧٨.

بعدم تعرض العامة لهم. ومن فعل فإنه سيسفك دمه، فلم يستجيبوا أول الأمر، إلا أنه لما شدد السلطان على ذلك كفوا أيديهم(١). وعلى أثر هذه القيود التي التزم بها النصارى، فقد لجأ بعضهم إلى إظهار الإسلام ليفك أسرهم من تلك القيود المفروضة في المرسوم(٢). إلا أنه ورغم هذا كله فقد اندلعت الحرائق مرة أخرى، إذ وقع حريق بقلعة الجبل –سكن جماعة من المماليك السلطانية– وتم إطفاؤها. ثم وقعت حرائق أخرى بدار نائب السلطان بقلعة الجبل، فقام الأمراء بإطفائها وسكن أمر الحريق بعد ذلك. وكان هذا في التاسع من جمادي الأخرة(٣).

وإلحاقاً بتتبع النصارى المتورطين في تلك الحرائق فإنه تم القبض على نصرانيين صلبا وسمرا وطيف بهما على جملين بالقاهرة(٤)، لأن أحدهما كان أسلم تبعاً لأبيه مدة تزيد عن عشر سنين ثم ارتد، وسئل عن ذلك فقال أن أباه جعله يسلم وهو دون البلوغ، ولما عُرض عليه الإسلام رفض، فما كان من السلطان إلا أن أمر بتسميره. وأما الآخر فإنه من النصارى الذين اعترفوا بارتكابهم لحرائق القاهرة(٥).

وجدير بالذكر أن هذا المرسوم لم يلق تنفيذاً جاداً، إذ منع النصارى من مباشرة أعمالهم أياماً قليلة، وأسلم بعض كتاب الأمراء فاستقروا في وظائفهم، ثم استقر سائر النصارى على وظائفهم وذلك بعد أن أخبر كريم الدين السلطان أن جماعة منهم في الأشغال السلطانية، ومتى صرفوا قبل انتهاء السنة فسدت الأحوال وتعطلت المصالح، وطلب أن يستمروا هذه السنة ويصرفون بعدها، فوافقه

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص ٢٨.
(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، قسم١، ص٢٢٧.
(٣) النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص ٢٨.
(٤) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٣٨٨.
(٥) النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص٢٩.

السلطان. ومرت الأيام فاستمروا في وظائفهم، وظهروا بعد اختفائهم(١)، وكأن شيئاً لم يكن. ولم يتبق من وراء هذا الحادث سوى خسائر فادحة من جراء الحرائق والتي كانت أضعاف خسائر هدم الكنائس(٢).

والآن يجب أن نتسآل من الجاني؟ من الفاعل الحقيقي؟

هناك عدة تساؤلات استنتاجية حول الفاعل لهذا الحريق، منها:

- هل الجنود الذين قطع السلطان أرزاقهم وسرح بعضهم هم من قاموا بالانقلاب والحريق كرد فعل منهم على فعل السلطان معهم، بدليل ما ذكر من أنه "رؤى بعض الجند بمصر يرمي النشاب إلى بعض الدور، وأن السهم لما أبعد عن القوس وأصابه الهواء أورى ناراً"(٣)، وتم توريط النصارى في هذا الأمر؟
- أم هل حقاً الفاعل والجاني هم النصارى نظراً لما تعرضت له كنائسهم من هدم. ودليل ذلك اعترافهم بأنفسهم بإقدامهم على ذلك لهذا السبب؟ أم أننا يجب ألا نركن إلى صحة ما ذكر من اعترافاتهم على اعتبار أن هناك من قال أنهم عذبوا وضربوا حتى يعترفوا على أنفسهم بأمر لم يقترفوه ثم عادوا وتبرؤوا من تلك الاعترافات- كما سبق ذكر.
- أم أنها كانت مؤامرة ضد الدولة والسلطان ليتم فيها تنفيذ الجزء الثاني من المخطط والذي بدأ بهدم الكنائس، وبذا يكون الفاعل للآمرين واحد، وتكون خطة محكمة مدبرة بليل تفضي إلى حدوث فتنة بين المسلمين وأهل الذمة، أو توحي أطراف المؤامرة بذلك فيتم تضليل الناس عن الحقيقة وإظهارها

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص ٢٧.

(٢) ترتون، أهل الذمة، ص ٧٠.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص ١٩.

بمظهر الفتنة الطائفية. إذ يتم هدم الكنائس فتتجه الإشارة إلى المسلمين، ويعقب ذلك حريق المساجد فيتجه البصر والبصيرة إلى المسحيين كرد فعل على هدم الكنائس.

- بافتراض صحة الاستنتاج السابق فيمكن أن يكون النصارى قد استُخدموا في هذه المؤامرة وأن يكون قد غُرر بهم أو تم تحريضهم على ذلك بدعوى أن ينالوا من المسلمين بحرق بيوتهم ومساجدهم كما فعل المسلمون وهدموا من قبل كنائسهم، فحسنوا إليهم فعل ذلك. أما السبب الحقيقي فيكون في قلب المحرض على تلك الحرائق؟ فيصبح النصارى على ذلك مجرد أداة استخدمت ليتم التمويه والتعمية على الفاعل الحقيقي. ويكون هذا ما دفع بعض النصارى إلى اعترافهم بارتكاب هذا- إذا ما افترضنا صحة اعترافهم على أنفسهم بذلك- دون أن ينتبهوا إلى أن هذه مؤامرة زج بهم فيها.
- لا زلنا في محيط اعتبار ما تم من حرائق مؤامرة مدبرة ،فهل لكريم الدين صلة بها من قريب أو بعيد خاصة وأن الشبهات تحوم حوله، وكان هذا واضحاً – كما سبق – من إكرامه لرئيس النصارى حينما آتى به يسأله عن تورط النصارى في هذا العمل وقبول كريم الدين رد البطرك بأن هذا من عمل سفهائهم كما فعل سفهاء المسلمين في هدم الكنائس. وهنا لم يتخذ منه كريم الدين موقفاً يتناسب مع حجم وعظم واقعة الحرق، حتى لم يطالبه بأخذ أي تدابير تمنع تكرار ما حدث، وأن يقدم له المسئول عن هذا لتتم معاقبته، بل تركه يذهب على راحلته دون عناء، ومثل هذا الفعل من كريم الدين يثير الشك والريب فيه. ومما يعمق هذا الاتجاه ما حدث من إثارة العامة ضده، وانتقادها لتصرفه، واعتدائها عليه. هذا الاعتداء الذي كاد أن يؤدي إلى الفتك به لولا أن تداركه السلطان الناصر وأمر بتتبع هؤلاء الناقمين على كريم الدين ومعاقبتهم لزجرهم وردعهم عن التعرض له.

وهناك من يُعزي سبب تصرف كريم الدين هذا حيال بطريق النصارى إلى أنه كان مسيحياً وأسلم، وظن العامة أن ميوله لا تزال مسيحية[١]. كما أن كريم الدين لم يقم باستدعاء بطرك النصارى إلا بعد مضي أسبوع من ابتداء ظهور النار بمصر[٢]. فهل لنا أن نأخذ من كلام موير سبباً يؤكد على صحة الشك والريب في كريم الدين، و أن ما يظنه العامة به أمراً يدفع أكثر بصحة تورطه في هذا الأمر؟

لكن في الحقيقة الأمر الذي يدعو إلى العجب هو موقف الناصر ممن هاجموا كريم الدين، فبدلاً من تحري الأمر والبحث فيه وسؤال كريم الدين عنه ووضعه قيد التحري، وجدناه يتعقب ويتوعد مهاجميه دون تعقب السبب الذي دفعهم إلى هذا، مع أن موقف كريم الدين كان مدعاة للشك، حتى أنشد أحد العامة شعراً في حقه قال فيه:

هذا كريم الدين لولا نصره دين النصارى مات وهو كريم[٣]

كما وجُد من يدافع ويُثني على موقف السلطان الناصر ووزرائه حيال أمر الحريق بصفة عامة، حيث ذكر أنهم وقفوا موقفاً حميداً يذكر لهم، إذ واجهوا الخطر منتصرين للحق، ولكن حين أخفقوا في صد هذا التيار الجارف لم يروا بداً من تنفيذ القوانين بكل صرامة، وظهر الناصر بمظهر الثبات، وأرجع المشاغبين إلى القانون[٤].

ومن المرجح أنها كانت مؤامرة محاكة ضد الطرفين، وقد تكون موجهة ضد السلطان الناصر نفسه. فقد كان سلاطين المماليك محاطين بفئة من الأمراء على جانب عظيم من الثروة وكثرة الأتباع، وأحياناً كان يحدث أن يتم خلع السلطان

(١) وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص ٩٤.
(٢) يعقوب نخله: تاريخ الأمة القبطية، ص ٢٢٨، ص ٢٢٩.
(٣) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٣٩١.
(٤) وليم موير: تاريخ دولة المماليك، ص٩٤.

على يد أمراء الدولة إذا لم يحز السلطان القائم على رضاهم، لذلك لم يكن السلطان يأمن على نفسه من غدر أمراء مصر، وخاصة أنه كان موقناً بقدرتهم على الـــدس لمن لا يردعهم . وكانت قوة شكيمة الأمراء وضعف السلطان أمامهم من الأمـــور الظاهرة، بل اتضحت للعيان رغبته في جلب رضاهم صيانة لعرشه وتثبيتاً لملكه. وكانت صفة الغدر التي تأصلت في نفوس المماليك تجعل كل فريق منهم لا يـــأمن جانب الفريق الآخر(١).

كما أنه لم يخل الحال من وجود تواطؤ واتفاق سري على إيقـــاع الـــضرر بالنصارى، وبعضهم ينسب هذا إلى دسائس المماليك الذين كانوا يحسدونهم على ما بين أيديهم وما لهم من النفوذ في الدواوين، فاستعانوا على تنفيذ مآربهم بالذين كانوا في ضنك بسبب المظالم، كما وافقهم على ذلك جهلاء المسلمين(٢).

إذن، فهمي مؤامرة حيكت ربما لإحراج الملك الناصر، وإظهار عصره بأنه عصر فتن بين الأقباط والمسلمين، وليبدو الناصر بمظهر الضعيف الذي لا يقـــوى على التصدي لمثل تلك الأحداث ومن ثم الثورة والخروج عليه وعزله. فلا يمكـــن استبعاد هذه الفكرة ، خاصة إذا ما علمنا أن عصر المماليك كـــان عـــصراً يتـــسم بالمؤامرات والدسائس بين أمرائه.

ومع هذا فإننا يجب أن نقر أن السلطات الحاكمة اجتهدت دائماً في الضرب بيد من حديد ضد كل من تسول له نفسه إثارة عوامل التفرقة الطائفية في المجتمـــع سواء كان ذمياً أم مسلماً. فلقد كان الاستقرار العام في المجتمع هو الهدف الرئيسي الذي سعت السلطات جاهدة في سبيل تحقيقه مهماً كلفها ذلك من مشقة وتعب(٣).

ومما هو جدير بالذكر أنه لا يوجد ذكر لليهود على الإطلاق فـــي حادثـــة حرق المساجد والبيوت . إلا أنه في نفس العام ٧٢١هـــ/ ١٣٢١م تم تخريب كنيسة

(١) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ١٣٨، ص١٣٩.

(٢) يعقوب نخله: تاريخ الأمة القبطية، ص ٢٣٦.

(٣) حياة الحجي: أحوال العامة، ص ٢٩٥.

بدمشق لليهود[١]. وادعى اليهود أنها قديمة[٢]، ولكن ثبت أنها محدثة، وقد كانت داراً قبل ذلك يجتمع فيها اليهود[٣]، ثم أضيف إليها توسيعات حتى كبرت واتسعت وعملوا بها منبراً، كل ذلك والمسلمون لا يعلمون شيئاً من أمرها لأنها كائنة في درب غالب سكانه يهود، فما أن علموا بها حتى هدمت[٤].

ونعود إلى تداعيات مرسوم السلطان عقب أحداث ٧٢١هـ/ ١٣٢١م فمما يجب أن تتوقف عنده ولا يمر مرور الكرام هو دخول بعض النصارى في الإسلام عقب منشور السلطان بالتزام أهل الذمة بالشروط العمرية، حيث ذكر في هذا أنه إذا فشل أهل الذمة في تحقيق أغراضهم عن طريق العنف، حاولوا دفع البلاء عنهم بمختلف الوسائل السلمية ومنها محاولة بذل الأموال الطائلة أو إظهار الإسلام حتى يستردوا مركزهم الأدبي في المجتمع[٥].

وفي الحقيقة أن إسلام أهل الذمة هرباً من الالتزام بالشروط العمرية أمر فيه نظر، إذ أنه قد ثبت أن المراسيم السلطانية التي كانت تصدر من حين لآخر بالتزام الشروط العمرية لم تكن تطبق دائماً، بل يعقب الشدة في صدورها فترة من التراخي، وإلا لما وجدنا تجدد صدورها بين حين وآخر إلا أنها لا تُنّفذ. كما أنه لا يعقل أن يغير أهل الذمة ديانتهم فقط من أجل الهرب من ارتداء اللون الأزرق والأصفر، أو لأنهم سيفقدون وظائفهم ما داموا يعلمون أن وقت الالتزام بتنفيذ هذه الشروط يقتصر على وقت صدورها، ثم يحصلون على حرياتهم مرة أخرى شيئاً فشيئاً. كما أنه يمكن إرجاع سبب إسلام أهل الذمة بعد تجدد صدور المنشور ليس هرباً من تنفيذه، ولكن لامتعاض أهل الذمة من بعضهم الآخر والذين يمارسون التخريب والتدمير، في حين يرى سماحة الإسلام الذي ينهي عن الأذى والتخريب

(١) الذهبي: ذيول العبر، ج٤، ص ٦٠.
(٢) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ٣٨٩.
(٣) ابن حبيب: تذكرة النبيه ج٢، ص ١١٧.
(٤) ابن الجزري: حوادث الزمان، ج١، ص ٤٧٨./النويري : نهاية الأرب،ج٣٣،ص٣٤
(٥) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص٤٦

والتدمير فيعتنقه.

والحق يقال أنه بالرغم من وجود الكتابات التي تذكر معاناة ومقاساة أهل الذمة تحت حكم المماليك، إلا أن هذا لم يكن طوال عصر المماليك بصفة مستمرة، فهناك من ذكر أنه قد تغير جو السياسة نحوهم بوجود الظاهر بيبرس بنفوذه ومحبته الخير للناس، فخفف عنهم الأثقال، ومنح جميع رعاياه الحرية التامة، وأخص المسيحيين بنعم وافرة لحسن ثقته بكفاءتهم(١). وكذلك كان الحال في عصر السلطان قلاوون كما سبق.

أما الناصر محمد بن المنصور قلاوون، فقد كان أبعد ما يكون عن التعصب الديني، يفهم الإسلام على حقيقته، فلا ينتصر لمسلم ضد مسيحي لأنه مسلم، بل يقيم ميزان العدل(٢). وقد أحسن إلى كل من الأقباط والمسلمين، وعمل على إرضاء كل فريق منهم، حتى ذكر أنه كان أكثر عطفاً على النصارى ممن سبقه من سلاطين المماليك، فتمتعوا في عهده بالهدوء والطمأنينة وراحة البال، اللهم إلا إذا استثنينا بعض حوادث عارضة كانت تؤدي إلى تغير السلطان والعامة عليهم، ولكن تلك الحوادث كانت تزول بزوال الدافع إليها(٣).

ومما يدل على وقوف الناصر موقف المنصف أنه بعد ما كان من أحداث الحرق في ٧٢١هـ/١٣٢١م فقد بلغه أن أحد الصوفية(٤) المتعصبين قد انقض على مسيحي في دمشق بعد ما رأى شخصاً مسلماً قد أقبل على نصراني يقبل يده،

(١) الأنبا ايسيذورس: الخريدة النفسية، ج٢، ص٣٨٤.

(٢) محمد عبد العزيز مرزوق: الناصر محمد، ص ٢٩٢.

(٣) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ١٢٢، ص ١٢٣، ص ١٣٨.

(٤) الصوفية: سموا بذلك لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق، ولكونه لباس الأنبياء عليهم السلام، أو لأنهم من الصف الأول بين يدي الله عز وجل لإقبالهم عليه بقلوبهم . وقيل: نسبة إلى "الصُفه" وهو اسم أطلق على فقراء المهاجرين على عهد رسول الله (ﷺ)." السهرودي .شهاب الدين عمر بن محمد: عوارف المعارف. تحقيق :عبد الحليم محمود/ محمود بن شريف. القاهرة. دار المعارف، ١٩٩٣، ج١، ص ١٤٤".

والنصراني منصرف عنه، فآلمه ذلك، وتقدم هذا الصوفي من النصراني وضربه، فمات من أثر الضرب، واختفى هذا الرجل الصوفي بعد قتله للنصراني، ولكن تم تعقبه حتى تم القبض عليه وحوكم، وصدر الحكم بضرب عنقه جزاء فعلته. كما أن الناصر كان يكره من يلمس منه البغض تجاه أهل الذمة، فقد كان الناصر يمقت قاضي المذهب الحنفي بدمشق لعداوته للمسيحيين، حتى أن السلطان عزله فترة من عمله حتى يستقيم أمره ويغير منهجه(١). ومن مظاهر المعاملة الحسنة من الناصر تجاه أهل الذمة ما ورد من أن الناصر أمر بعمارة كنيسة لهم ورتب لها العمال ليقوموا بعمارتها، الأمر الذي أدى إلى إثارة حنق المسلمين فهدموها، وما أن علم السلطان بتلك حتى أصدر أمره بأن يعاد بناء ما هدم منها فعاد، وتطاولت مع الأيام(٢).

ولئن قال قائل أنه أحياناً ما كان يتشدد عليهم، فهذا مردود عليه بأن هذا التشدد يكون حينما يحدث أمر من الأمور. كما يبرئه من ذلك أن التشدد كان على المسلمين وأهل الذمة على السواء أياً ما كان المخطئ وذلك بلا تمييز. حتى ما ورد من إلزام أهل الذمة بالزي المخصص لهم فهذا لا يحقر من شأنهم. إذ ورد أنه في ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م تم إلزام الشهود العدول بالعمائم، وأن من لم يتعمم سيمنع من الشهادة، فأتى الجميع العمائم والتزموا بها، حتى أن كل من لم يكن له عمامة استدان وتعمم(٣). أي أن هذه هي إجراءات شكلية متّبعة، فكل فئة لها ما يميزها من اللباس بصرف النظر عن ملتها. كذلك في ألوان اللباس وتحديداً الأزرق والأصفر فليس فيه ما يضر بأهل الذمة خاصة إذا ما علمنا أن أرباب السيوف(٤) كانوا يرتدون

(١) وليم موير: تاريخ دولة المماليك، ص ٩٤، ص ١٠١.
(٢) أبو الفضايل: تاريخ سلاطين المماليك، ج١، حاشية ص١٩،ولم يذكر لنا السنة التي حدثت فيها تلك الحادثة.
(٣) ابن الجزري: تاريخ ابن الجزري، ج٢، ص ٢٧٦.
(٤) أرباب السيوف: هم العسكريون، وغالبهم من الأمراء. سموا بذلك لتربيتهم تربية عسكرية. ومن أرباب السيوف من تولي الوزارة والحجابة وولاية المظالم والنيابة وغير ذلك. "محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشي القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م. ص٢٣".

اللون الأحمر وتحته اللون الأصفر[١]. كما أن محاولة أهل الذمة التشبه بالمسلمين في الزي ربما يرجع إلى عادات وتقاليد المجتمع المصري والتي تأثر أهل الذمة بها. كما أن بعض المسلمين نراهم قد تأثروا ببعض عادات أهل الذمة، إذ يذكر أن بعض النساء المسلمات كن يأتين بعض التصرفات في حياتهن تبدو التأثيرات اليهودية والمسيحية فيها واضحة تماماً. فقد اعتدت بعض النساء ألا يشترين السمك أو يأكلونه وعدم دخول الحمام أو غسل الثياب أو شراء الصابون يوم السبت متأثرات في ذلك ببعض العادات اليهودية المتعلقة بحرمة يوم السبت عندهم. كما ظهر تأثرهن بالعادات المسيحية في عدم الاشتغال بشيء في ليلة الأحد[٢]. وقياساً على هذا يمكن أن نعزي أمر تشبه النصارى بالمسلمين في اللباس. ومع هذا فلا أصفر ولا أحمر ولا أزرق مما يعيب ويشين مرتديهم؛ بل هي فئات في المجتمع يجب أن تتمايز.

أما عن توليهم الوظائف، فقد استطاع أهل الذمة في مصر أن يتولوا الوظائف الإدارية، وحتى حين كانت المراسيم تصدر بمنع استخدام غير المسلمين في دواوين السلاطين والأمراء، فإن ذلك كان يعبر عن سياسة لحظية وتكون النتيجة العودة لاستخدامهم[٣]. وهذه الأوامر لم يقصد بها إبعادهم بشكل نهائي بقدر ما كان الغرض منها كبح جماحهم بسبب ازدياد تعسفهم الذي لم يكن الرد الطبيعي لما تمتعوا به من تسامح عوملوا به من قبل الحكام المسلمين شرقاً وغرباً على مر الزمن[٤]. ويشهد على ذلك العديد من الأمثلة مثلما حدث في ٧١٠هـ/ ١٣١٠م حينما تولى غبريال القبطي [٥] مسئولية الجامع والأسرى بدمشق ونظراً الأوقاف بها أيضاً [٦]. كما أن الناصر عين كاتباً قبطياً لقاضي المذهب الحنفي

(١) العمري : المسالك، ج١، ص ١٩.
(٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٢٧٠، ص ٢٧١.
(٣) كمال حبيب: الأقليات والسياسة، ص ١٩٩.
(٤) نريمان عبد الكريم: معاملة غير المسلمين، ص ١٢٢.
(٥) غبريال القبطي: شمس الدين عبد الله غبريال القبطي. خلع عليه بخلعه بيضاء حينما أسند إليه نظر الأوقاف "البرزالي: المقتفى، ج٢، ص ٤٥٤".
(٦) البرزالي: المقتفى ج٢، ص ٤٥٤.

بدمشق[١]. كذلك ورد أن مكين القبطي[٢]، قد تولى نظر الجيش[٣]. فيفهم من تلك الأمثلة أنهم لم يتولوا الوظائف فقط، بل وبعض الوظائف المهمة تم تقليدهم فيها.

وهناك من يذكر أن معاملة الناصر الحسنة للمسيحيين الذين كانوا حوله ليس لمهارتهم الفنية وولائهم له فحسب، بل لثقته بأنه لن يكون منهم من يناهضه في الملك[٤]. والحقيقة أن حسن معاملة الناصر يشهد بها أهل الذمة أنفسهم وهي تشملهم وتشمل غيرهم.

ومما يدل على حسن معاملته لأهل الذمة أنه كان يذهب إلى أديرتهم ويقابل رهبانهم. وكان الرهبان يحسنون استقباله في جو من الود والحب، إذ يذكر أن السلطان الناصر ذهب لمقابلة راهب يسمى "برصوماً" في الدير، ولما علم برصوماً بقدوم السلطان قال للرهبان "جهزوا لنا شيء للأكل فإن شخص جليل المقدار يحضر إلينا"، ولما حضر السلطان سلم عليه برصوما وأكرمه ودعا له قائلاً :"ينصرك الله"، ثم قبل مكان قلب السلطان[٥]. وفضلاً عن هذا فقد ورد أنه عند رجوع السلطان من دمشق ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م بعد أن رتب أمور الجند بها ونفقاتهم واطمئن إلى أحوالهم، فقد خرجت الناس في مصر لاستقباله عند رجوعه، فيذكر أن المسلمين خرجوا بالمصاحف الشريفة وأعلام الخليفة، أما النصارى فخرجوا بالأناجيل، واليهود بالتوراة وتعالت الأصوات له بالدعاء[٦]. إذن فخروج الناس له

(١) وليم موير: تاريخ دولة المماليك، ص ١٠١.
(٢) مكين القبطي: إبراهيم بن قروينه المكين القبطي، صودرت أمواله أكثر من مرة، كانت وفاته ٧٥٠هـ." ابن شاهين. عبد الباسط بن خليل الظاهري: نيل الأمل في ذيل الدول. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. صيدا – بيروت– المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م. ق١، ج١، ص١٩٠.
(٣) ابن شاهين: نيل الأمل، ص ١٩٠.
(٤) وليم موير: تاريخ دولة المماليك، ص٩٥.
(٥) مفضل بن أبي الفضايل: تاريخ سلاطين المماليك، ج٣، ص ١٦١.
(٦) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص ٢٠١، ص ٢٠٤.

على اختلاف مللهم وسعادتهم بعودته وحسن استقباله إنما كلها أدلة على أن عطف وحسن معاملة الناصر كان تشمل جميع العامة.

وحسبنا في هذا المقام أن نذكر أنه قد بلغت الكنيسة بالرغم مما صادفها أعلى مراتب التقدم والنجاح، فنبغ من أبنائها عدد جم من الأذكياء والمجتهدين الذين تمكنوا من ناحية الأدب العربي، فضلاً عن اللغات والعلوم الأخرى، فوضعوا الكتب النفيسة في كل فن ومطلب حتى دُعي هذا الجيل بالعصر الذهبي لهذا السبب(١). كما قدمت مصر بين القرنين العاشر والرابع عشر مساهمتها الرئيسية إلى تراث الآداب العربية المسيحية في التاريخ على يد البطريرك الملكي سعيد بن البطريق الذي كتب في القرن العاشر تاريخاً للعالم منذ بدايته وحتى أحداث ذلك العصر. وفي الحقبة نفسها تولى ساويرس بن المقفع كتابة "تاريخ بطاركة الإسكندرية". وفي أواخر القرن الثالث عشر كتب كل من ابن الراهب والمكين تاريخاً متسلسلاً للأحداث العامة على نمط ما كان يكتبه أفضل المؤرخين العرب في ذلك العصر. وبرع في النحو والصرف يوحنا السمنودي(٢)، والأخوة الثلاثة أبناء العسال(٣). وهذا التقدم في اللغة فرض التحول من القبطية إلى العربية. وعلى هذا فقد عرف القرن الثالث عشر أغرز نتاج أدبي قبطي في مصر(٤). وحسبنا في مجال التاريخ في مصر في عصر المماليك المؤرخ القبطي (مفضل بن أبي الفضايل) (٥)، وهو صاحب باع في كتابة التاريخ وتسجيله. وهنا نتسأل هل كونهم برعوا في الأدب ليس دليلاً على أنهم تمتعوا بمناخ صحي مستقر وآمن على حرياتهم، مما أفضى بهم إلى الإبداع كل في مجاله، وأدى بالتالي إلى إقرار هذا الإنتاج الأدبي؟

---

(١) كامل صالح نخله/ فريد كامل : تاريخ الأمة القبطية، ص ١٢٢.
(٢) موريس اليسوعي: الكنيسة القبطية، ص ٢١.
(٣) فوزي أمين: المجتمع المصري، ص ٢٣٩.
(٤) موريس اليسوعي: الكنيسة القطبية، ص ٢١، ص ٢٢.
(٥) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٢٨٤.

على أن هذا لا ينفي بعض ما لاقاه أهل الذمة من شده، لكن الحقيقة أن أهل الذمة لم يتعرضوا للهوان إلا في أوقات الشدة والاضطرابات والفتن، وفيما عدا ذلك تشهد كثير من الكتابات المعاصرة على أنهم تمتعوا في عصر المماليك بكل ما تمتع به إخوانهم المسلمون عن حقوق وامتيازات(١). ولكنها بضع جهات في المجتمع المصري كانت ترفض تطبيق مبدأ المساواة بين معتنقي الديانات المختلفة(٢)، والإسلام من سوء فعلهم برئ، فإن أهل الذمة المصريين لم يشعروا بوجه عام بأنهم محرومون من حقوقهم الشرعية الأساسية في بلدهم(٣). لكن ما عرف في بعض مراحل الإسلام من وجوه الاضطهاد مع قلته وخفة تبعاته فإن مرجعه إلى أسباب سياسية ودوافع شخصية أو بواعث عقلية، وهي أسباب لا يحمل الدين وزرها في كثير ولا قليل(٤).

ويجب ألا ندع الحديث في هذا الموضوع دون أن نرصد دور الدولة بشكل عام من هذه الأحداث، فلا نملك أي دليل جدي على تورط الدولة في الأحداث الطائفية أو تواطئها فيها. وبرغم بعض الشائعات التي ترى أن الدولة صاحبة مصلحة في إثارة الفتن الطائفية ثم قمعها حتى تتمكن من فرض سياسات اقتصادية معينة أو لتمرير بعض القوانين الاستثنائية، لكن نرى أن موقف الدولة أو على وجه الدقة بعض رموزها المتهاون أو الهذيل أحياناً يؤدي إلى المساعدة على إثارة الفتنة الطائفية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فلم تحسم الإدارة المصرية على اختلاف أنواعها عبر العصور مسألة الصراع على الوظائف بين المسلمين والأقباط، فهي تارة في ظروف وجود حاكم على علاقات طيبة بصفوة الأقباط، أو وجود تيار

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٤٧.
(٢) حياة الحجي: أحوال العامة، ص٢٨٩.
(٣) قاسم عبد قاسم: أهل الذمة في مصر، ص ٥٢.
(٤) توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني، ص ١٧٠.

قومي متزايد، فتفتح الباب لتوظيف الأقباط لتظهر بمظهر الإدارة التي ترضى الجميع. وفي فترات تصاعد المد الإسلامي تقلص الدولة من استخدام الأقباط في الوظائف المهمة والمناصب القيادية، أو تغض الطرف عن بعض الصراعات الطائفية التي تدور في أروقة الإدارة الحكومية.

وبقى أن نذكر أن هناك دور سلبي آخر للدولة يؤدي إلى استمرار حوادث الفتنة الطائفية وهو مواجهة الدولة للفتنة الطائفية مواجهة وقتية لحظية وحسب، تبدأ باندلاع هذه الأحداث وتنتهي بنهايتها وهلم جرا، فليس في استراتيجية الدولة تصور مستقبلي واضح لإيجاد حلول دائمة للمسألة في مصر. ومن ناحية أخرى فإن عجز الدولة عن حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي يعاني منها المجتمع المصري يؤدي بطريق غير مباشر إلى تهيئة المناخ المناسب لاندلاع نيران الفتنة الطائفية. فالفتنة لا تندلع في مجتمع سليم قادر على مواجهة مشاكله وقضاياه. كما أن ضعف الدولة أو بمعنى أدق سلطات الإدارة يساعد على اندلاع نيران الفتنة وانتشارها(١).

هذه محاولة لفهم الأحداث التي وقعت في عام٧٢١ه/١٣٢١م بعيداًعن التأثر بالواقع السياسي، فلكل سلطان أو حاكم سياسته وأسلوبه في الحكم ،كما أن نفوذ الأكثرية والأقلية يختلف كذلك باختلاف الحكام ،ونفوذ كل طائفة مادياً ومعنوياً يختلف كذلك، وستظل العلاقة كذلك بين أخذ ورد إلى ما شاء الله .

(١) رفيق حبيب/ محمد عفيفي : تاريخ الكنيسة المصرية، ص ٢١٩، ص ٢٢١.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المصادر

- **ابن إياس. محمد بن أحمد الحنفي (٩٣٠ه/١٥٢٤م)**

بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق: محمد مصطفى . القاهرة- الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- **ابن الأخوه. محمد بن محمد بن أحمد القرشي.(٧٢٩ه/١٣٢٨م)**

معالم القربة في أحكام الحسبة. كيمبرج. دار الفنون، ١٩٣٧م.

- **ابن الجزري. أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (٧٣٩ه/١٣٣٩م)**

تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري. تحقيق، عمر عبدالسلام تدمري. بيروت- المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.

- **ابن حبيب. الحسن بن عمر (٧٧٩ه/١٣٧٧م)**

تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه. تحقيق: محمد محمد أمين. القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م.

- **ابن حماد . محمد بن على (٦٢٨ه/١٢٣١م)**

أخبار ملوك بني عبيد. تحقيق: تهامي النقرة- عبدالحليم عويس- مصر- دارالصحوة، ١٩٨٠م.

- **ابن خلدون .عبدالرحمن المغربي (٨٠٨ه/١٤٠٦م)**

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- بيروت- مؤسسة الأعلمي، ١٣٩١هـ/١٩٧١م. وطبعة دار القلم ،بيروت ،ط٥، ١٩٨٤م.

- **ابن سباط . حمزة بن أحمد بن عمر (٩٢٦ه/١٥٢٠م)**

تاريخ ابن سباط . تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. طرابلس- جروس برس، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

- **ابن شاهين. عبد الباسط بن خليل الظاهري (٩٢٠ه/١٥١٤م)**

نيل الأمل في ذيل الدول. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. صيدا – بيروت – المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

- **ابن عبد الحكم. أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٢٥٧ه/٨٧٠م)**

فتوح مصر وأخبارها. تحقيق: محمد الحجيري. لبنان- دار الفكر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

- **ابن الفرات. ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم.(٨٠٧هـ/١٤٠٥م)**

تاريخ ابن الفرات. تحقيق : قسطنطين زريق – نجلا عز الدين – بيروت – المطبعة الأميركانية، ١٩٣٩م.

- **ابن قاضي شهبه. أحمد الأسدي الدمشقي (٨٥١هـ/١٤٤٧م)**

تاريخ ابن قاضي شهبه. تحقيق : عدنان درويش . دمشق، ١٩٩٤م.

- **ابن قيم الجوزيه: أبوعبد الله محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ/١٣٥٠م)**

أحكام أهل الذمة. تحقيق: صبحي صالح – بيروت . دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٣م.

- **ابن المكين. جرجس بن العميد (٦٧٢هـ/١٢٧٣م)**

تاريخ المكين . تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام أبو القاسم محمد حتى الدولة الأتابيكية. تحقيق: على بكر حسن. دار العواصم- مصر، ٢٠١٠م.

- **ابن الوردي. زين الدين عمر (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)**

تاريخ ابن الوردي- المطبعة الحيدرية . النجف، ط٢، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

- **أبو الحسن الروحي. محمد بن أبي السرور (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)**

بلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء. تحقيق: عماد أحمد هلال وآخرون- القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

- **أبو صالح الأرمني:**

تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمني (في أديرة مصر وكنائسها) تحقيق: ب. ت. أ. إيفتس. ألمانيا، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

- **أبو الفدا. عماد الدين إسماعيل (٧٣٢هـ/١٣٣١م)**

المختصر في أخبار البشر – القاهرة- ط١، د. ت.

- **أبو المحاسن . يوسف من تغري . بردي (٨٧٤هـ/١٤٧٠م)**

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. مصر – دار الكتب المصرية، ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م.

- **الإسحاقي المنوفي. محمد عبد المعطي. (١٠٩٠هـ/١٦٥٠م)**

أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول. القاهرة – الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٨م.

- **اسطفان الدويهي: (١١١٦هـ/١٤٠٤م)**

تاريخ الأزمنه . نشره: الآباتي بطرس فهد – لبنان – جونيه، ١٩٧٦م.

- **أيسيذورس. الأنبا:**
الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة. مصر، ١٩٩١م.
- **البرزالي. القاسم بن محمد بن يوسف (٧٣٩ه/١٣٣٩م)**
المقتفى على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي . تحقيق : عمر عبد السلام تدمري. المكتبة العصرية. صيدا – بيروت – ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- **بيبرس الدودار المنصوري(٧٢٥ه/١٣٢٥م)**
التحفة الملوكية في الدولة التركية. تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من ٦٤٨-٧١١هـ/ نشره: عبد الحميد صالح حمدان. القاهرة – الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- مختار الأخبار . تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى ٧٠٢هـ. تحقيق : عبد الحميد صالح حمدان. القاهرة . الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة . تحقيق: زبيدة محمد عطا – القاهرة . عين الدراسات والبحوث، ٢٠٠١م.
- **حيدر أحمد الشهابي:**
الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان. وهو يتضمن تاريخ ألف ومائة واثنين وستين سنة من مولد النبي (ﷺ) إلى موت الأمير أحمد المعني. القاهرة، ١٩٠٠م.
- **الدمشقي . الحسن بن عمر (٧٧٩ه/١٣٧٧م)**
المنتقى من درة الأسلاك في دولة ملك الأتراك في تاريخ حلب الشهباء. انتقاه. مؤلف مجهول. تحقيق: عبد الجبار زكار. دار الملاح – دمشق ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- **الدواداري. أبو بكر عبد الله بن أيبك(٧٣٦ه/١٣٣٥)**
كنز الدرر وجامع الغرر (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر) تحقيق: هانس روبرت رويمر. القاهرة- المعهد الألماني للآثار. ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.
- **الذهبي . الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد (٧٤٨ه/١٣٤٨م)**
العبر في خبر من غبر (من ٥٤٧ إلى ٧٠٠). تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول. بيروت –لبنان – دار الكتب العلمية، ١٩٨٥.
-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام . تحقيق: بشار عواد معروف – بيروت – دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- **ساويرس بن المقفع.(٣٩٠ه/١٠٠٠م)**
تاريخ البطاركة. تحقيق: عبد العزيز جمال الدين . القاهرة، ٢٠٠٦م.

- **السهرودي: شهاب الدين عمر بن محمد (٦٣٢هـ/١٢٣٤م)**
عوارف المعارف. تحقيق: عبد الحليم محمود/ محمود بن شريف. القاهرة. دار المعارف، ١٩٩٣م.
- **السيوطي. جلال الدين: (٩١١هـ/١٥٠٥م)**
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم . المكتبة العصرية. بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- **الشهرستاني: محمد عبد الكريم : (٥٤٨هـ/١١٥٣م)**
الملل والنحل . تحقيق: محمد بن فتح الله بدران . القاهرة. ط١، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.
- **الشيرازي. عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله:(٥٨٩هـ/١١٩٣م)**
نهاية الرتبة في طلب الحسبه. تحقيق: السيد الباز العريني. بيروت. دار الثقافة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- **الطبري. محمد بن جرير:(٣١٠هـ/٩٢٣م)**
تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك. تحقيق: على مهنا . بيروت –لبنان– مؤسسة الأعلمي، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- **العمري. ابن فضل الله: (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)**
التعريف بالمصطلح الشريف. القاهرة مطبعة العاصمة، ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م.
–مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن). تحقيق: أيمن فؤاد سيد . القاهرة . المعهد العلمي للآثار الشرقية. ١٩٨٥م.
–**العيني. بدر الدين محمود:(٨٥٥هـ/١٤٥١م)**
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (عصر سلاطين المماليك. حوادث وتراجم ٦٨٩–٦٩٨هـ/ ١٢٩٠– ١٢٩٨م) . تحقيق:محمد محمد أمين.القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- **قدامة بن جعفر:(٣٣٧هـ/٩٤٨م)**
الخراج وصناعة الكتابة . تحقيق: محمد حسين الزبيدي – العراق. وزارة الثقافة. سلسلة كتب التراث – دار الرشيد، ١٩٨١م.
- **القضاعي. محمد بن سلامة.(٤٥٤هـ/١٠٦٢م)**
- الأنباء بأنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء وولايات الأمراء. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. صيدا – بيروت – المكتبة العصرية، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
- **مفضل بن أبي الفضايل.(٧٥٩هـ/١٣٥٨م)**

تاريخ سلاطين المماليك "النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد. تحقيق: بلوشت ادجار – فرنسا – باريس، ٢٠٠٤م.

- **المقريزي. تقي الدين أحمد بن على .(٨٤٥هـ/١٤٤٢م)**

السلوك لمعرفة دول الملوك. نشره : محمد مصطفى زيادة . القاهرة- لجنة التأليف الترجمة والنشر، ١٩٣٩م.

- تاريخ الأقباط . تحقيق: عبد المجيد دياب. دار الفضيلة- المغرب، ١٩٩٨م.

-المواعظ والاعتبار في ذكر المخطط والآثار . تحقيق : أيمن فؤاد سيد. لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

- **النويري. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:(٧٣٣هـ/١٣٣٣م)**

نهاية الأرب في فنون الأدب. القاهرة – دار الكتب والوثائق القومية، ط٣، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

- **النويري . محمد بن قاسم:(٧٧٥هـ/١٣٧٢م)**

الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية. تحقيق: عزيز سوريال عطية. الهند – حيدر آباد – الدكن، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

- **الهمذاني. رشيد الدين فضل الله.(٧١٨هـ/١٣١٨م)**

تاريخ المغول الإيلخانيون: تاريخ هولاكو. دمشق. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٠م.

- **اليافعي اليمني المكي. عبد الله بن أسعد:(٧٦٨هـ/١٣٦٧م)**

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان.القاهرة. دار الكتاب الإسلامي، ط٢ ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

- **ياقوت الحموي. أبوعبد الله:(٦٢٦هـ/١٢٢٩م)**

معجم البلدان- ألمانيا – معهد تاريخ العلوم العربية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

- **اليوسفي. موسى بن محمد بن يحيى (٧٥٩هـ/١٣٥٨م)**

نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر. تحقيق : أحمد حطيط . بيروت . عالم الكتب. ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- **اليونيني: قطب الدين موسى بن محمد:(٧٦٢هـ/١٣٢٦م)**

ذيل مرآة الزمان (٦٩٧- ٧١٠هـ/ ١٢٩٧- ١٣٠٢م) تحقيق: حمزة أحمد عباس . الإمارات العربية المتحدة – أبوظبي للثقافة والتراث، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

- **ثالثاً : المراجع**

- **بتلر.الفرد**

فتح العرب لمصر. ترجمة :محمد فريد أبو حديد. القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

- **توفيق الطويل:**

قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام- القاهرة- دار الفكر العربي، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.

- **توفيق عزوز :**

الهدية التوفيقية في تاريخ الأمة القبطية- القاهرة. ١٩٨٣م.

- **حياة ناصر الحجي:**

أحوال العامة في حكم المماليك (٦٧٨- ٧٨٤هـ/ ١٢٧٩- ١٣٨٢م) دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية. الكويت، ط٢، ١٩٩٤م.

- **دائرة المعارف الإسلامية.** إعداد : أحمد الشنتاوي وآخرون، د. ت .

- **رفيق حبيب/ محمد عفيفي.**

تاريخ الكنيسة المصرية – مصر – الدار العربية للكتاب، ١٩٩٢م.

- **زدرشتين :**

تاريخ سلاطين المماليك- ليدن – برل، ١٩١٩م.

- **سعيد عبد الفتاح عاشور:**

المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك . القاهرة. دار النهضة العربية، ١٩٦٢م.

- **على إبراهيم حسن.**

تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر بوجه الخصوص. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٤م.

- **فوزي محمد أمين :**

ملامح المجتمع المصري . أدب العصر المملوكي. مصر – دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٣.

- **قاسم عبده قاسم:**

دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي – القاهرة- دار المعارف، ١٩٧٩م.

- **كامل صالح نخله/ فريد كامل.**

تاريخ الأمة القبطية . خلاصة تاريخ الأمة القبطية – القاهرة، د. ت .

- **كمال السعيد حبيب:**

- الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانية

(١-١٣٢٥هـ/ ٦٢٢- ١٩٠٨م) القاهرة، ٢٠٠٢م.

- **مارتان موريس اليسوعي:**
الكنيسة القبطية . ترجمة : جورج عازار – بيروت . دار المشرق ، ١٩٩٢م.
- **محاسن محمد الوقاد:**
اليهود في مصر في ضوء وثائق الجنيزة (٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م) القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.
- **محمد عبد العزيز مرزوق:**
الناصر محمد بن قلاوون – القاهرة – وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٤م.
- **محمد قنديل البقلي:**
التعريف بمصطلحات صبح الأعشى. القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.
- **محمود رزق سليم:**
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي – القاهرة ، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.
- **نريمان عبد الكريم أحمد:**
معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية . سلسلة تاريخ المصريين (٩٠) القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٦م.
- **هموم الأقليات في الوطن العربي.** إصدارات ابن خلدون . التقرير السنوي الأول لعام ١٩٩٣م. مركز ابن خلدون . القاهرة. ١٩٩٣م.
- **وليم . ماير:**
الملابس المملوكيه. ترجمة : صالح الشيتي . الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.
- تاريخ دولة المماليك في مصر. ترجمة : محمود عابدين/ سليم حسن. القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٥م.
- **يعقوب نخله:**
تاريخ الأمة القبطية . القاهرة- دار العالم العربي، ط٣، ٢٠٠١م.
- **يوسف الدبس الماروني**
تاريخ سورية الديني والدنيوي. يتضمن تاريخ سورية من أواخر القرن الحادي عشر إلى أوائل القرن السادس عشر. دار نظير عبود. بيروت، ١٩٠٢م.